الفصل الخامس

هنرى روبير

٤ سبتمبر ١٨٦٣ - ١٣ مايو ١٩٣٦

«أتعرفين السر الحقيقى للمرتجلين؟!...
...أنهم لا يرتجلون أبدًا!!»

بربيه

obeikan.com

obeikandl.com

محامى العصر الحديث

وهذا طراز عبقرى، سبق بفنه بنى العصر، فغدا أسلوبه اليوم، وفيما بعد اليوم، هو الأسلوب العصرى.

ولما أبنه النقيب «دى مورو جيافرى» قال إن المحاماة فقدت أكبر رجل رفع شأنها منذ عهد «برييه»، وهى أبلغ مقالة عن مكانته فى التاريخ. فلعل «برييه» أكبر رجال المحاماة فى التاريخ الفرنسى، كما كان أعجوبة البلاغة والشجاعة فى مجلس النواب ومجلس الأعيان.

هو الذى حمل لواء الدفاع عن «لمنيه» وعن «شاتوبريان» حين هتف للدوقة «دى برى» «سيدتى إن ابنك هو الملك» وكان لويس فيليب يومئذ هو الملك!... وهو الذى ترافع عن «لويس نابليون» عند ما طُلب إعدامه فأنقذ رأسه ليصير بعد سنين جلالة الأمبراطور... ولما عقد «روبير كويلار» موازنة بينه وبين عظماء البيان فى التاريخ الفرنسى الحديث قال: «سمعت «ميرابو» فى مجده، وسمعت «دى سر» وسمعت «لينيه» لكن أحدًا لم يعدل «برييه» فى العناصر الأساسية التى يتكون منها الخطيب».

وفيما هو إلى جوار المتهم فى إحدى جنايات القتل انطلق المدعى المدنى «النقيب كرسون» يحذر القضاة أن تأخذهم روعة الدفاع الذى سيدلى به إليهم فخر للتاريخ القضائى فى فرنسا!.

فإذا جاء بعده هنرى روبير دون أن يقف أمامه «شيه دستانج» و «ليون ديفال» أو «جول فافر»، أو «روس»، أو «ألو» أو المحامى الذى لم تكد الإمبراطورة «يوجينى» ترى هنرى روبير فى سنة ١٩١٤ حتى ذكرته له بعد وفاته باثنين وثلاثين عاما!... أعنى «لاشو» صديق الأمبراطور الشخصى ثم «جامبتا» زعيم فرنسا ثم «باربو»، أو «كارتييه» و «مارتينى»، الذى أنقذ شارل دلسبس بدفعه بسقوط الحق فى رفع الدعوى العمومية لسقوط التهمة. ثم «دى بوى» أستاذ بوانكاريه والرئيس «بوانكاريه» نفسه، رئيس الجمهورية ورئيس الوزارة ومحامى «جونكور» المجمع العلمى والرئيس «بارتو» مؤرخ «ميرابو» و«دانتون» و«لامرتين» ثم الرئيس فيفيانى ثم «شنى» «أفضلنا» كما كان يدعوه «هنرى روبير» والرئيس «والدك روسو» والنقيب «بيو» حفيد النقيبين أو قل الوزيرين «بيو» نقيب نانت و «باروش» «نقيب باريس» و «لابورى» العظيم... إذا جاء هنرى روبير بعد «برييه» دون هؤلاء وأولاء. ولم ير «جيافرى» أنهم أعلوا شأن المحاماة كما أعلى شأنه «هنرى روبير» فأعظِمْ بمنزلته فى التاريخ.

والحق أن «هنرى روبير» سما إلى ذلك الأوج لأسباب خاصة، لقد ظل ربع قرن محامى فرنسا الأول، حتى ليكاد المرء يخاله وصف نفسه فى عالم المحاماة بما وصف به «فيكتور هيجو» فى عالم الأدب. فيما سماه «مرافعة عن العصور الماضية» بأنه «استوى على عرش الأدب نصف قرن كأنه نصف إله» – وفرنسا أمة محامين تحكمها حكومات محامين.

وكان هنرى روبير «نقيب الحرب» كما كانوا ينعتونه، إذ أجلت انتخابات المحامين إلى نهاية الحرب الكبرى الأولى ولم يسمح بالانتخابات السنوية إلا فى سنة ١٩١٩ فاقترن اسمه بالنظام القضائى طيلة أيام المحنة.

وكان يلقى فى تأبين الصرعى من الزملاء كلمات تخلب الألباب، ويمثل المحاماة فى كل معترك. ويحمل رداءها ولواءها عند الجميع، فلما خمد لهب جهنم لم تخب تلك الشهرة اللامعة، حتى ليسأل «مارشال هول» الأستاذة الفرنسية «أوديت سيمون» فى أعقاب إحدى مرافعاته: «ترى هل أجدت كما يجيد هنرى روبير؟».

وارتلعت هذه الكفايات من مستوى الذين يموتون إلى مستوى الذين لا يموتون إذ انتخب عضوًا فى «المجمع العلمى» وأضحى واحدًا من «الأربعين الخالدين».

* * *

ولد «هنرى روبير» فى ٤ من سبتمبر سنة ١٨٦٣ وشغفته الفصاحة حبا منذ حداثته الباكرة وعشق الإلقاء. وكان فى عهد الطلب ينشد الشعر ويمارس التمثيل أمام الأصدقاء والقرناء، وفى ٢٩ من أكتوبر سنة ١٨٨٥ حلف اليمين لينتظم فى سلك المحامين، فلم يكد يقضى مدة التمرين حتى انتخب فى يوليو سنة ١٨٨٧ بتأييد النقيب «مارتينى» سكرتيرًا لمؤتمر المحامين.

وبهذا النجاح الانتخابى أضيف اسمه إلى أمجد أسماء الرجال فى فرنسا مثل الرؤساء «بوانكاريه» «وفيفيانى» «وجاميتا» «وبارتو» «وريبو» والسفير «كامبون» أولئك الذين كانت سكرتارية المؤتمر أولى درجات المجد لهم.

وانتخب معه اثنان آخران يكفى أن تعرف اسميهما لتدرك مقدار ما يتعاون الماضى مع المستقبل. أولهما الأستاذ «واتين» الذى تولى توزيع العدالة وشرع الأحكام من كرسيه فى رياسة دائرة محكمة النقض أما ثانيهما فهو مفخرة المحاماة الفرنسية «فرنان لابورى».

لم يكد «روبير» يستمرىء حلاوة الظفر، بسكرتارية المؤتمر، حتى راح يضرب فى أعالى «الفوج» ليستجم، وفيما هو يركض فوق القمم، جاءه خطابان، يسألانه أيقبل أن يكون سكرتيرًا للنقيب «درييه» فأبرق بقبوله، وتولى أعمال المكتب فى أكتوبر سنة ١٨٨٧.

قضى السكرتير الجديد عامين فى مكتب النقيب، حتى قبض الله إليه النقيب، فلم تبرح

ذاكرته ذكراه، إلى أن قضى هو الآخر. فتراه يهدى إليه بعد أربعين عامًا كتابه «المحامى» ويختصه بأروع الصفات فى مؤلفاته، إذ كان «دريبه» أبًا يخلص الحب ولم يكن أستاذًا فحسب، وكان يفتح صدره لسكرتيره، ويفتح أمامه أيضًا أبواب داره.

وفى نوفمبر من عام ١٨٨٨ رحل النقيب والسكرتير لمرافعة فى قضية «شامبيج» وهو فتى فرنسى سليل أسرة ذات حسب، أتم دراساته فى باريس وشارك فى الأدب، واتصلت أسبابه «ببول بورجيه» كما يقول «هنرى روبير».

أحب «شامبيج»، فى الثالثة والعشرين من عمره، مدام «جريل» زوج المفتش العام الفرنسى للسكك الحديد فى قسطنطينة بالجزائر، وكانت إنجليزية الأصل تكبره بعشر حجج، تحيط بها هالة من التقى والورع، والأمومة المثلى، والزوجية المرتجاة، لكن تباريح الغرام، بعد عام وبعض عام، كانت كافية لتعاهد فتاها على الفرار معًا، إلى العالم الآخر... بالانتحار، فأطلق عليها مسدسه فى يناير ١٨٨٨ فأرداها، وأطلقه على نفسه فلم يصب منها مقتلا... وقدم إلى محكمة الجنايات.

ووصلته القضية مرة أخرى، «ببول بورجيه» فأوحت إلى عميد «الأكاديمى» الراحل أروع مؤلفاته كتاب «التلميذ» على قول، وعلى قول آخر شهد به «أناتول فرنس» إن الجريمة وقعت مشابهة لما كان يدور فى خيال «بورجيه».

ترافع «دريبه»، وترافع فى إثره سكرتيره ففتح لنفسه طريق الخلود..

وقضى بسنوات سبع من الأشغال الشاقة، خففها رئيس الجمهورية إلى السجن.

وذات مساء مشت هيئة الدفاع كاملة، بخطى متثاقلة، وقلوب وجلة، على ضوء الشموع، لا إلى المحكمة، ولكن إلى المقهى. ولا لتطلع على المستندات، ولكن لتطلع على رقص «أولاد نايل».

وهمس «دريبه» فى أذن سكرتيره «يا صديقى ماذا يقول مجلس النقابة إذا رآنا ههنا!» فأجابه زعيم الارتجال: «هو بلا شك يحسدك يا سيدى النقيب!».

وبعد أن صحبه «دريبه» إلى المجد فى تلك القضية، صحبه ليستجم فى تونس، وكان «دريبه» محاميًا عن الحكومة التونسية فى فرنسا.

وانقضى عامان، ومات «دريبه» بالتهاب رئوى أصابه وهو يبرح «قصر التويلرى» إثر دعوة عند رئيس الجمهورية.

* * *

مشى «روبير» قدمًا فى عالم المحاماة، وكانت قد صمتت أفواه «برييه» و «لاشو» و «جول فافر» و «دريبه» وأمثالهم من قبلهم.

وكانت الحياة رخية فى أعقاب حرب السبعين، فلم يك يخشى على الكفايات الرفيعة من حمى الجشع والأساليب التى تخلقها عقد الحياة العصبية، وتهيأت للمحامى الناشئ قضايا هائلة كان من مستواها، فلم يكد بلغ الثلاثين حتى ترافع عن «الأمباشى جومای» فى قتل «الام جيروند» سنة ١٨٨٩ وأعدم موكله.

لكن اليأس لم يعرف سبيلا إلى نفسه لأن المحاماة صناعة الأمل، والمحامى الموهوب لا يثنيه يومه عن غده، ولا ألمه عن أمله.

وواتته الفرصة الكبرى يوم ترافع عن «جبريلْ بومبار» سنة ١٨٩٠ ضد النائب العمومى العظيم «كزنای دى بوربير».

فى هذه القضية سمع القضاء لأول مرة فى تاريخه من المحامى الشاب أن من الجارمين من يقترف الجريمة تحت تأثير التنويم المغناطيسى!

ودعت المحكمة أساتذة الجامعات، وأخليت القاعة لإجراء التجارب! وسلط النائب العمومى فيوض بلاغته على هذا الاختراع الخطر، لكن المحامى الناشئ ظفر بالظروف المخففة لموكله. بل إنه ليظفر من النائب العمومى نفسه بقوله فى ختام مرافعته «يا حضرات المحلفين... إننى لم أطلب إلى الجلاد رأس امرأة إلا مرة واحدة فى طول ما حييت لكن المحلفين رفضوا طلبى... ومع ذلك طابت نفسى... فأترك لضمائركم تقدير الأمور».

ونجت جابريل من المشنقة بعشرين عامًا من الأشغال الشاقة مع أنها هى التى وضعت بيدها حبل المشنقة فى عنق المجنى عليه! أما زميلها (ميشيل إيرو) فحكم عليه بالإعدام...!

وفى عام ١٨٩٨ ترافع عن الأطباء مرافعته الخالدة عن الدكتور «لابورت».

وفى سنة ١٩٠٢ ترافع عن المسيو «همبير» عضو مجلس الشيوخ ومدام «همبير» ضد الصيرفى المصرى «قطاوى» وسنقرأ المرافعتين بعدُ.

وفى سنة ١٩٠٨ ترافع عن مدير الفندق «رينار» فى مقتل التاجر «ريمى» فسلمت رأس المتهم.

وفى سنة ١٩١٣ انتخب نقيبًا لمحامى باريس فعمل لإطلاق سراح النقيب البلجيكى «تيودور» والنقيب الرومانى «أنطونسكو» إذ قبض عليهما لأسباب سياسية فى الحرب الكبرى الأولى.

وبعد أن انتهت الحرب ترافع عن المهندس «بيير» فى مقتل «كاديو» سنة ١٩١٤ فظفر لمهندسه بالبراءة.

ثم ترافع عن الجنرال «ميشيل» الذى سلم للألمان دون دفاع مدينة موبوج فى أوائل الحرب الكبرى الأولى، فنال له فى ساعتين ما عجز «لاشو» عن نيله للمارشال «بازان» عن موقفه فى الحرب السبعين، بعد مرافعة دامت أيامًا ثلاثة!

وفى عام ١٩٢٣ ترافع عن الحسناء البولونية «فالنتين أومنسكا» إذ قتلت أختها لتقيها برحاء المرض المزمن! فبرئت، وإن كان القضاء ما يزال يرفض هذا المبدأ إلى الآن.

وفى ١٥ من نوفمبر سنة ١٩٣٣ دخل «الأكاديمى» خلفًا «لريبو».

وفى ١٠ من يوليو سنة ١٩٢٤ أنعم عليه بنشان اللجيون دونير من درجة كوماندور.

وفى عام ١٩٢٥ ترافع عن «بوبوروش» أمام محكمة جنايات السين فبرأه المحلفون وسنتلوها بعدُ.

ثم ترافع عن القسيس «هيجى» فى قضية «كولمار» أمام محكمة جنايات السين وختم دفاعه الوطنى الرائع بما ختم به عمله القضائى الخالد أمام تلك المحكمة هاتفًا... أيها الأب، صح معى؛ وبأعلى صوتك: فلتحى فرنسا.

وبنى ببنت له محام من نقابة باريس غدا فيما بعد رئيسًا لوزارة الحرب فى سنة ١٩٤٠ هو «بول رينو».

وكانت آخر كلمة له فى المجمع الفرنسى فى فبراير سنة ١٩٣٦ فى تأبين نصير الملكية العظيم «جاك بانفيل».

ويومئذ بدا للناظرين، شاحبًا، يعروه الهزال، كفيفًا، تنذر حالته بأنه سيرتحل الرحلة الأخيرة عن الدنيا.

وكأنما اتخذت النذر لنفسها موعدًا من ١٣ مايو سنة ١٩٣٦، لتحرم المحاماة والمجمع من النقيب الخالد، فجلس فى كرسيه بالمجمع «شارل موراس» كاتب النظام الملكى ومحرر «الأكسيون فرانسيز» فحل محل الرجل الذى قضى حياته فى الكلام والكتابة الرجل الذى قضى حياته فى الكتابة لتغيير نظام الجمهورية إلى النظام الملكى!

انقطع «روبير» للتأليف منذ سنة ١٩٢٨ وأخذ عالم الأدباء يقرأ له بعد أن كان يقرأ عنه، وبعد أن كان محاميًا عن الأفراد، أصبح محاميًا عن المحاماة... وبعد أن كان اسمه يذكر فى المناسبات أخذ يدوى فى المسامع باستمرار، بكتاباته فى المحاماة، أو فى التاريخ، أو بمحاضراته التى كانت تنشرها مجلة Conférência أو فى كتبه «قضايا التاريخ الكبرى» أو «المحامى» أو

«محامى سنة ١٨٣٠» أو «ذكريات عن المحكمة والمدينة» أو كتابه عن «لويس السادس عشر» أو كتابه عن «مالزرب».

وكان طوال أيامه عزوفًا عن السياسة معتزًا بالمحاماة فلم يغب عن المحكمة بالانتقال إلى مجلس النواب أو مجلس الشيوخ محتذيا حذو أستاذه «درييه».

وكأنما كتب عن نفسه ما كتبه عن ذلك الأستاذ «كان فى استطاعته أن يكون عضوًا فى مجلس النواب أو فى مجلس الشيوخ، لأن رجال السياسة جميعًا كانوا أصدقاء له، تطوق أعناقهم أياديه عليهم، وكان يستطيع أن يصير وزيرًا لكن الله رزقه الهداية فآثر المحاماة على ما عداها».

كان كنزًا حافلا بالكفايات، والكفايات فى أمة كفرنسا، وفى وسط كالمحاماة لا يمكن أن تضيع.

* * *

فما هى تلك الكفايات التى رفعت صاحبها وصاحبنا إلى الذروة؟.

الجواب يتحصل فى فكرة واحدة، هى أنه كان يفهم حقائق قضاياه كما كان يفهم عقلية القضاة.

وهذا هو الذى جعله بحق أحدث الأقدمين، وأقدم المحدثين. وبعبارة واضحة هذا الذى جعله مترافعا عظيما فى أواخر قرن البخار، وفى أوائل قرن اللاسلكى، بل هو الذى يسر تبسيط المرافعات «التقليدية» التى كانت منابر لآيات البيان فى أعقاب حرب السبعين إلى ما يستسيغه القضاة بعد الحروب العالمية فى القرن العشرين... هؤلاء القضاء الذين يضعون الساعة أمام عيونهم، فإن لم يضعوها أمامهم، تصوروها مركبة فى رءوسهم... تدق باستمرار...!

نحن الآن فى المحكمة. وها هو ذا النائب العمومى يترافع «وذلك محام هادئ يكاد ينام، لكنه نهض الآن، بادى الرشاقة، رفيع القامة، قوى الصوت، واضح الكلام، ينطلق فى سرعة غريبة كأنه يخشى فوات الميعاد! إنه يتكلم كأنه يتحدث، وها قد مضت بضع دقائق دون أن يظهر أنه محام عظيم، ولكنه قد أوغل فى الصميم، وحميت الوقدة، واندلع لهيب النار، وانساقت الحجج متدافعة معجلة، فهو يضرب يمينا، ويضرب شمالا كلاعب السيف، ضربات منظمة، وأحيانا كثيرة ضربات غير منظمة، تسحر العيون... أو كما شبهوه بالحاوى، إذ يبهر المحلفين بصيحاته وحركاته وإشاراته، بينما هو يلتقط على أعينهم أعظم شىء فى أيديهم، وهو هنا روح المتهم!

وفى عشرين دقيقة أو ثلاثين! يبدو للسامعين أن النائب العام أو غيره كان يسرف فى تبديد

وقتهم، بطويل مرافعاته، ضد رجل ما يزال طاهرًا كالطهر، مبرأ كالمسيح! ويملى التاريخ إملاءة يسيرة ليسمع الناس كلمة القضاء... بل كلمة القدر.

تلك كانت صورته وهو يترافع كما رسمها لنا سامعوه ومؤرخوه بل كما تتراءى لنا فى كتاباته ومرافعاته. والأسلوب هو الرجل.

حدثنا «هنرى روبير» عن رجل من أرباب القضايا دخل القاعة فبصر بمحام يترافع، فتساءل من الأستاذ..؟ وقيل له إنه الأستاذ «فلان» قال... كيف هذا! إنه يتحدث بمنتهى البساطة! لا يمكن أن يكون هذا هو الأستاذ «فلان» البعيد الصيت...!!

فإذا رجعت إلى كتاب «المرافعة»[1] رأيت الأستاذ المؤلف يدخل قاعة محكمة جنايات «ليون» فيتسائل عن محام يترافع ببساطة، ويلقى الجواب فى دهشة وإعجاب، إنه الأستاذ «هنرى روبير»!

وفى مقال معنون «فتحت الجلسة» بعث به إلى مجلة Candide فقرأه الأحياء فى ٢١ من مايو ١٩٣٦ بعد أن كان قد رفع من سجلّ الأحياء. محض «هنرى روبير» المحامين النصح أن يقرءوا مرافعات «والدك روسو» ليتعلموا «فن البساطة والسهولة والدقة» وفى كتاب «المحامى» يهيب بالمحامى أن يذكر أنه يقف أمام القضاء «ليقنع لا ليلمع» وأن القرن السادس عشر قد حمل إلينا رسالة من أجيال الفصاحة القضائية الأولى هى أن (تترافع باختصار ولباقة وإخلاص).

من أجل ذلك نجد مؤلفاته كمرافعاته، يبدؤها ليخلص منها بسرعة وفى حرارة، وأنت تبدأ قراءة كتبه فلا تستطيع أن تدع الكتاب حتى تصل إلى خاتمته، لا حواشى ولا انفجارات، ولا إطناب ولا محسنات، وإنما أحكام سريعة شاملة على الأشياء والأشخاص.

هذا كتاب (قضايا التاريخ الكبرى) فى عشرة أجزاء، يعرض للناس أروع ما اجترحه الضمير الإنسانى من أوزار وحيل وخبائث، وهذه مرافعته الطبية عن الأطباء تروعك بسهولتها، وقوة دلالتها، حتى لكأنها دروس تلقى على التلاميذ وسنقرؤها فيما بعد.

ذلك بأنه كما أسلفنا كان يفهم قضاياه فيعرضها من حيث يجب أن تعرض، وما دام يفهمها فهو قمين بأن يُفهمها.

والذى لا يفهم لا يستطيع أن يفهم، وتبسيط الأشياء أصعب من تعقيدها، والغموض فى التعبير هو فى غالب الأمر أثر الغموض فى التفكير.

يبسط الواقعة والتعليق معًا ولا يفصل بينهما، ففى المحاماة أسلوبان: الأول يسرد الوقائع ثم يناقشها حتى لا يباغت ضمائر القضاة بجدل يجمل تأخيره وحتى تحتل الحوادث مكانها من

---

(١) الأستاذ حسن الجداوى.

الأذهان. والثانى: أسلوب الأساتيذ فى محكمة الجنايات، لا يضيعون الوقت فى السرد، ثم العودة إلى ما سبق من سرد، وهو فى الواقع أسلوب الخطيب الذى لا يريد أن يترك الواقعة إلا بعد أن يصبغها بصيغته، فلا يدع للسامع فترة، يعمل فيها فكره، بل يضطره إلى التفكير فى الواقعة والرأى فى وقت معًا.

امتاز «هنرى روبير» من رجال الدفاع بالسرعة المتناهية فى الإلقاء، وله من جراء السرعة واقعة مشهورة فى صدر شبابه.

كان يترافع عن قاتل عشيقته «شامبيج» فقال وهو يطير فى أجواء الكلام «... فعقد العزم على أن يقتل نفسه ثم يقتلها...» ولم يفطن أحد إلى ما فى الكلام من استحالة، لأن الجمهور والمحلفين كانوا يسبحون على يديه كالزورق الذى يحمله التيار.

ولذلك الإسراع تجده ينتزع متهمًا بقتل أبيه من براثن النائب العمومى بعد ١٧ دقيقة، كما شهدت الأستاذة «أوديت سيمون» بل كما شهدت أيضًا... ينتزع المتهمة بالقتل فى بضع دقائق (!) فى قضية فالنتين أومنسكا!!

بل إنه ليبرئ المتهم بعد ٢٠ دقيقة لا أكثر ولا أقل، كما تعهد للمحلفين فى مستهل دفاعه عن «بوبوروش» إذ قتل الرجل الذى نبأه أن خليلته تخونه. وسنتلوها فيما بعد.

وفى سنة ١٩١٣ كتب الأستاذ «فرنان پايان» قبل أن يصبح نقيبًا، ومؤرخًا لأستاذه «بوانكاريه»، بل قبل أن يضع نفسه فى التاريخ فيصبح محاميًا عن «بيتان»[1] سنة ١٩٤٥ فعلل سرعة «هنرى روبير» بأنه يخشى أن يضيع أثر كلامه فى المحلفين فينتهى بسرعة ليتركهم تحت أثقال براهينه.

وفى الحق لقد مهد له ذلك صفاء عقله وقدرته على الارتجال، ذلك الارتجال الذى قال عنه إنه نتيجة ترديد الكلام قبل المرافعة حتى ليسمى نفسه «آلة كلام».

يبدأ المعركة بأفكار واضحة، وعبارات سهلة، لينتهى منها بأسرع ما يستطيع - والنصر الرائع هو غالبًا النصر السريع - مشدود الوثاق، ما استطاع، بموضوعه، لا يرسم الصور ولا يلقى الحكم، ولا يتفيهق بالألفاظ، ولا يتطلب الشهرة، لأنها دانت له من زمان، يلقى الحجج واحدة بعد أخرى؛ كالفيلق فى آثار الفيلق، وكالانتصار فى أعقاب الانتصار. ويستغنى عن أربعين دليلا بأدلة أربعة، لها قوة أربعمائو ووضوح واحد... مع القصد فى التفاصيل والسخاء على الدلائل، يعرضها كل عرض، ويصل التهمة نارًا بعد نار، حتى إذا أوفى على التمام قذف بما يشبه المدفعية الثقيلة تمحو كل أثر، إن كان قد بقى أثر.

---

(١) رئيس جمهورية فرنسا فى الحرب العالمية الثانية.

فلنستمع إليه فى نهاية قضية الأطباء يقول ما نجمعه فى كلمات: إنما هى صيحة تحذير للهيئة الطبية قاطبة... فإذا كان الطبيب منهم يقاد إلى المحكمة ليحبس ويلوث، لأنه واجه حالة خطيرة فأجرى عملية لم تنجح، فالخير له كل الخير، أن يمتنع، ويدع المريض يموت ذلك الموت الجميل... ذلك نظام وقوف الأطباء مكتوفى الأذرع أمام الألم. نظام «دعه يمت» ... حذار أن يسيطر عليه هذا التأثر المؤلم فى ساعة تستوجب أن تتوافر عنده حرية نفسه فى كمالها، واتزانه فى تمامه، فيتذكر الطبيب أن شرفه كله، وسمعته كلها فى الميزان... إن العدالة نفسها، بذلك البطش الذى ليس من سمات العصر، ستتكافل فى أن يزيغ بصره وترتعد يداه...

* * *

كان يشرح ارتجاله بقوله «أنا لا أفكر فى الكلام حين ألقيه» ويقول «أنا لا أحضر مرافعات مكتوبة، وإنما أترافع بينى وبين نفسى على انفراد وبغير صوت، لا أتكلم، وإنما تجرى العبارات فى مخيلتى إذ أمشى، أو حين أكون فى عربتى، وفى المساء تتوارد لدى خواطر ذات بال» وهى عبارة تشرح للقارئ حالة كان يشهدها سامعوه عندما تُفتتح الجلسة فتبدو عليه علامات الانفعال.

ذلك بأنه، إلى جوار هذا النشاط الذهنى والكلامى الذى يعترك فى كيانه، يحمل تبعات ينوء بها أقوياء الرجال.

وكلما جل قدر المحامى فدحت مسئوليته، والقضايا ليست إلا مخاطرات؛ فمن ذا الذى يستطيع أن يتأكد من مصائر المخاصمات، أو يتحكم فى طرائق التفكير والتدبير!

القضايا معارك كمعارك السلاح وما أحكم القائد الذى يتفادى المعركة ويصل إلى هدفه والذى يقدرها قدرها قبل أن يخوض غمارها، إلى غاياته.

وقديمًا كان «تورين» يرتجف إذا دخل المعركة فيعنف جسمه بقوله «اربعدى أيتها الجبانة. إنك لا تدرين أين أقذف بك».

وكان «تورين» قائد لويس الرابع عشر أعظم القواد فى تاريخ فرنسا قبل «نابليون».

وكان أخطب الخطباء «ميرابو» يستهل خطبته كما حدثنا «بارتو» فيبدو عليه الضيق والإرهاق والتردد أمام الكلمات، كأنما يعالج حملًا ثقيلًا ينقض الظهور.

وكان الهم يعترى «لابورى» ليلة الجلسة، وقبل المرافعة، من كثرة ما حضر وقدر.

والارتجال دون درس؛ مجازفة بحقوق الناس واستخفاف بالقضاة. أما ارتجال الألفاظ فشىء آخر.

لا يرتجل الكلام العظيم إلا من حضّر مرافعته مرات ومرات، ومرن على مواجهة الأحداث

ومجابهة الفجاءة، فدانت له أعنة البلاغة... هو لا يرتجل كما يتوهم الواهمون، وإنما يستخرج ما فى مواهبه من كنوز ظاهرة أو غائرة تظهرها الحاجة، فهذان تحضيران: مباشر وغير مباشر.

ولعل هذا الدرس السابق للدعوى، والجهد القديم للتفقه، هو الذى عناه النقيب «شارل شنى» فى محاضرته لفتيات الجامعة فى سنة ١٩١١، إذ حدثهن عن خطواته الأولى بقوله: .... وكلنا جميعا نشارك بنصيب ضخم فى تلك الأكذوبة البريئة التى لم ينخدع بها أحد قط... وهى أننا نرتجل عفو البديهة كلاما سهرنا فى تحضيره آناء الليل وأطراف النهار...!!

بل هو الذى عناه إميل أوليفيه رئيس وزارة فرنسا فى القرن الماضى حينما قال عن زعماء الارتجال «إنى لم أشهد فى حياتى إلا ثلاثة رجال. هم زعماء الارتجال «تيير» رئيس الوزارة و «برييه» عميد المحامين وأنا... ولكن الحقيقة أننا لا نرتجل مطلقًا».

بلى... وهو الذى عناه «برييه» فى قوله لإحدى صديقاته «تتحدثين عن الارتجال؟ أتعرفين السر الحقيقى للمرتجلين؟ إنهم لا يرتجلون أبدًا»!

وفى أواخر القرن الماضى أشار محام - كان عضوًا فى مجلس النواب - إلى أن القضاة سيسمعون من «باربو» مرافعة أصلها مكتوب فصرخ فى وجهه «باربو»: إن احترامى لهذه الساحة يضطرنى إلى تحضير ما أقول، لكن الذين لا يحضرون كلامهم ويلثونه بالتناقض يلقون صدورًا رحبة فى ساحة أخرى...

وكانت الساحة الأخرى كما أراد «باربو» مجلس النواب!!

بل إن جوريس الخطيب الاشتراكى وزعيم مجلس النواب، هو الذى يقول «إن احترامى لسامعى يضطرنى لتحضير خطبى...».

وإذا لم تكن المحكمة ساحة للخطباء فإنها أعظم ساح البلاغة خطرًا فى العصور الحديثة، ليست البلاغة فيها للفن وحده، أو للجدل وحده، ولا للكسب فحسب، ولكنها لمزاج موفق يدخل فى تأليفه هذا كله وكثير غيره.

ولذلك قالوا إن المحامى ممثل، وإنه غير مستقل، لأنه وكيل يقيده الموكل.

هو سفير ومعبر، ولا يستطيع أن يسفر أو يعبر إلا مرتجلا، فالارتجال هو الذى ينقل الأثر لسامعيه، مستجيبًا لتأثيرهم فيه. والمحامى يخلق فى حركاته، وسكناته، خلقًا من فكره وفمه. ولن يعيش هذا الخلق إلا إذا استمد الحياة من البيئة التى ولد فيها.

وقديمًا قال «أرسطو»: إن غرض الخطيب منذ يشرع فى خطبته أن يظفر بالقبول فى عقول سامعيه وأن ينسج عروة من التعاطف بين المتحدث والسامع، فإن السامعين لا تتفتح عقولهم للاستنارة أو للمتابعة إن لم تجمعهم هذه العروة بالمتكلم..

إنما السر فى تأثير الارتجال وسحره أنه تصوير لآخر أثر للطبيعة فى أنفس الناس، فتقدم الحجة فى الوقت الذى تعمل فيه عملها كاملا، كالهجمات يقوم بها الجيش فى أوانها وفى مكانها.

ولا بأس على التحضير إذا كانت المرافعة المحضرة، فى خدمة المترافع، ولم يك هو عبدًا لها فالمرافعة المحضرة كما قال أحد الفلاسفة عن النقود «خادم نافع وسيد ضار».

إنما يلقى مرثيته ذلك الذى يتلو مرافعة مكتوبة! كأنما يتحدث من بعيد فلا يطابق الحال... والبلاغة مطابقة الحال.

روى «أوديبير» أن محاميًا بارزًا فى أعقاب الحرب العالمية الأولى قصد إلى الجلسة ليترافع فى قضية خاسرة، وإذ به يشهد فى القاعة محاميًا ميزته فى الحرب جلائل أعماله، فما كاد يشرع فى مرافعته حتى عطف عليه يغمره بتحاياه، ثم انفتل إلى مصاعب الحرب، ومتاعب البشر، وعاد إلى مفاخر الزميل يمجدها.. وتحسن جو الجلسة... وكأنما صفت السماء... وأرهفت الآذان لسماعه، وفاضت أنهار البلاغة... وبرىء المتهم.

سألت إحدى المجلات جماعة من العظماء منهم «دومرج» - رئيس الجمهورية الفرنسية - و «بريان» رئيس الوزارة و «هنرى روبير» عن أروع الأوقات التى صادفوها فى حياتهم فقال «روبير» «... إذا كان المقصود بأروع الأوقات أكثرها تأثيرًا فقد عرفت منها ثلاثة... الأول عندما أقسمت اليمين. والثانى حين انتخبت نقيبا. والثالث يوم استقبلتنى «الأكاديمى»... ولا أستطيع أن أبين أروع لحظة فى حياتى العملية لأن الوقت الذى يقضيه المحامى فى الدفاع من أروع الأوقات، تستعمل فيه كل فصاحتك وبلاغتك ومقدرتك لإنقاذ رأس سجين، وتخلق له جميع الظروف المخففة التى لا تحلم بها نفسه، لتقنع القضاة وتسيل دموعهم وتثير فى نفوسهم الرحمة والإشفاق والصفح.

وأنى لك التوفيق إلى ذلك إن لم تضع نفسك فى إهاب المتهم! لقد يكون المحامى ممثلا، لكنه مترجم يجب أن يتوافر فيه الإخلاص فى الترجمة، فإذا لم يكن مع المتهم بفكره وقلبه، فكيف يستطيع أن يدافع عنه».

فإذا شرع فى مرافعته أدار فكره فى شتى الجهات يبحث عن متهم غير المتهم ليلقى عليه أفدح أثقال الاتهام، كالمجنى عليه أو، كالشاهد...!

وإذا لم يكن ثمة مجرم آخر فلقد يجد زوجًا لم ينفق خمسة فرنكات لإنقاذ روح زوجته، أو قومًا تسببوا فى إحداث الوفاة!! أو تحريضًا أو استفزازًا أو استسلامًا، أو مرضا كانت فيه خاتمة الحياة، أو تقصيرًا من الهيئة الاجتماعية ممثلة فى شتى الهيئات والمصالح، إلى غير ذلك من أساليب الدفاع وإن شئت فمن أساليب الاتهام.

فإذا قضى المحلفون له لم يقضوا لموكليه، وإنما قضوا ضد خصومهم!.

وهكذا نقل إلى المحكمة تلك الخطة التى اختطها فى الملحمة، الرجل الذى كسب ستين معركة، «نابليون»، أو نقلها عن «هانيبال» للأجيال وهى أن «الهجوم خير وسيلة للدفاع» إذا علم بقيام حلف ضده فى وسط القارة أو فى شرقيها أو فى غربيها لا يلبث فى غرفات «النوبلرى» بل تلقاه أوربا مرتين تحت أسوار «فينا» ومرة أخرى فى قصر «فردريك» العظيم فى «برلين» ليصحب ساعته الدقاقة إلى باريس ثم إلى «سنت هيلين» ومرة رابعة تجده فى موسكو... أمام الحريق... بل أمام باب اللانهاية.

ولكن ما الذى يقوله «هنرى روبير» فى تلك القضايا التى سلخ المحقق فيها عامًا كاملا. والتى سودت فيها آلاف الصحف؟.

للجواب عن ذلك نقول إن «هنرى روبير» كان كأنما أقسم أن يترافع فى القضية، ولا شىء غير القضية!.

كان يجيد عدم الكلام قدر ما يجيد الكلام.. يعمد من فوره إلى المسألة التى تحكم القضية، فيظهرها على طريقته فى قوة وسرعة وإيجاز، مدركا أن الخير للمحامى ليس عرض كل ما فى الإضبارة، بل الفن الحقيقى إهمال ما يجب إهماله منها.

وقديمًا علمنا أساتذتنا أن فن الحذف يساوى تمامًا فن الكلام. والتطويل يفعم الأنفس سآمة، ويدفعاالأعين إلى الغمض، والأفئدة إلى الاستنامة.

لقد باهى الرئيس... «أوديبير» بأن كل فخاره أنه لم يكن القاضى الذى ينام فى أثناء المرافعات..! وقال «إن القاضى لا ينام إذا كانت المرافعة موجزة واضحة، فيها حياة..».

وبينما يلوم (لك الرئيس الذى قطع على المحامى مرافعته بقوله: انتهت المرافعة... ٥٠ فرنكا غرامة! فلما احتج المحامى قال الرئيس: أنت تعارض! فلتكن ١٠٠!! بينما يزرى بهذه المقاطعات، يفخر بأنه كان إذا رزئ برافعة طويلة لا يقاطع المحامى وإنما يلجأ إلى الدسائس!! فيتجه إلى المحامين الآخرين، القاعدين فى انتظار قضاياهم، ويتحدث إليهم فى أدب جم: إننى أشير عليكم بتأجيل قضاياكم أسبوعين، لأن المرافعة فى القضية الحالية ستطول... فيحتج الزملاء على تطويل الزميل. ليترافعوا فى قضاياهم...! وبهذه الوقيعة، البديعة، يختصر المحامى وينجو رئيس المحكمة بنفسه.

* * *

كان «روبير» يقول إنه درس «لاشو» دراسة عميقة، لكنك لا تجد فيه مَشابه من أستاذه... أستاذ القرن الماضى..

فمرافعات «روبير» كانت مرافعات موضوعية مجردة، لا تتخللها الجلجلة، ولا الصوت المدوى، ولا الصور التاريخية، ولا العبارات البيانية الخلابة التى يتبارى فيها «لاشو» مع شاعر القرن الماضى «فيكتور هيجو».

إنما خلف لاشو من بعده «باربو» نابغة الفن التقليدى فى الدفاع، و«لابورى» المهيب الذى يلمع بقدر ما يقنع.

أما «روبير» فلم تكن تهمه رسوم الخيال المشرقة ولا طلاوة اللفظ ولا طلاقة الأسلوب، ولا تفخيم المعانى، فإذا وردت صورة من الصور أو حكمة من الحكم فى معرض الدفاع ألفيتها منتزعة من صميم الواقع لا من آفاق الخيال. مقتطعة من جوهراللباب، لا بهرجا يستنار به الاعجاب.

كانت روائع «لاشو» طرزًا أدبية تضاهئ مزاج العصر، ووقفات تمثيلية تخلب البصر، يقول للمحلفين وهو يترافع فى سنة ١٨٥٥ عن «رودلف» المتهم بدس السم لعشيقته «ميمى» «ها إن السماء تدوى وكأنها تكاد تنقض، إنكم تسمعون عصف العاصفة وهزيم الرعد.. إن السماء تزمجر سخطا على ما فى الأرض من إعنات... إنها تحتج معى على تلكم الإجراءات!!!» أو يقول تلك العبارات العظيمة التى أوحت بها إليه دقات الساعة ليلة الميلاد، فأنقذت رأس المتهم ، أو تلك الكلمة التاريخية التى سددها إلى صدور القضاة قبل أن يسددها إلى أسماعهم فى مرافعته ضد الجنرال «تروشى» بعد حرب السبعين، وكان «تروشى» قد تهاون فى قضية الإمبراطور، قبل أن يخلع:

إنكم ستحكمون فى قضية الجنرال «تروشى»... ولكن التاريخ سيصدر حكمه على حكمكم... سيقرأ التاريخ ما دار فى هذه الجلسات، فحذار أن تضحوا كل شىء مرة واحدة.. فيقول بنو الأجيال المقبلة إن كل شىء فى هذه الأمة قد ضاع - حتى العدالة نفسها.

لم يكن «روبير» ينحو ذلك النحو البلاغى فى الدفاع لأن الدنيا تغيرت، والمحاكم تطورت، وضاقت صدور القضاة كأنما ضاقت بها رحاب الوجود، وكأنما تريد أن تصل بالدنيا إلى آخر الدنيا..

وبعد أن كان لدى المحامى من الوقت ما يأذن له بأن يترافع ما شاء، ساعات أو أياما، أصبحنا نجد محاميًا - كما روى «هنرى روبير» - يسأله الرئيس قبل المرافعة عما يكفيه من وقت فيقول: ستشغلنى المقدمة ربع ساعة، واستعراض الوقائع نصف ساعة، والمناقشة ثلاث أرباع الساعة أما الخاتمة فخمس دقائق، فيرد الرئيس بقوله «اقتصر على الوقت المخصص للخاتمة... تفضل...!».

إنما تلاميذ «لاشو» ولداته هم أولئك الذين يقولون مثل الذى قال «باربو» فى قضية شركة «قناة بناما» عن «دلسبس» وهو يرأس المؤتمر الذى قرر شق قناة العالم الجديد (قنا بناما) على غرار القناة التى شق بها صدر مصر فى العالم القديم، فأعاد إلى الأذهان صورة «كرستوف كولمب» وهو يحتفظ حتى قبره بالحديد الذى قيده به ملوك وهب لهم عالما جديدًا... وأعاد ذكرى مؤتمر «الصليبيين» إذ أعلنوا الحرب الصليبية ثم قال: «أما فى ذلك المؤتمر فلم يتقرر استرداد قبر المسيح من أيدى الكفار، ولكن عمل المؤتمرين لم يكن أقل خطرا! كانوا يطمحون إلى أن يغيروا تجارة العالم وأن يصلوا شعوبا يفصل بينها ثلاثة آلاف ميل، وأن يعدلوا غشاء الكوكب الأرضى، فيضيفوا بعض «الرتوش» إلى وجه البسيطة كما أبدعته يد الخالق!!».

أو كما قال عن «١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩» يوم عظيم فى تاريخ فردنان دلسبس كانت تخفق فيه أعلام الدول على ثلاثين باخرة حاملة ثلاثة عواهل.. تمر على أعتاب سرابيوم لتلقى مراسيها فى خليج السويس بين صيحات الحماسة ترددها كل أرجاء العالم المعمور... ثم عاد إلى أوربا بعد أن فتح أرض الله لعباده...».

وفى نهاية مرافعته يقول بين تصفيق الحضور «إنك يا حضرة الأفوكاتو العمومى تنعى على «دلسبس» أنه ملأ نفسه بالخيال!! الحملة الصليبية عندك كانت خيالا، والحملة المصرية (حملة نابليون على مصر) عندك كانت خيالا، لأنك تسمى المخاطرات العظمى التى لا تنجح خيالا، إن الانسانية لا تستطيع أن تعيش بغير الخيال...».

أو مثل «فيكتور هوجو» وهو يترافع عن ولده «شارل» ضد عقوبة الإعدام فيقول: «... إننى الذى نشأته فى الثورة على عقوبة الإعدام، فإن شئتم متهما فأنا وحدى الجدير بالاتهام...» ثم يقول: «هذه العقوبة التى إذا وقعت على مجرم جعلته يشك فى وجود الإنسانية، فإذا وقعت على برىء جعلته يشك فى وجود الله!...».

أو مثل «فيكتور هوجو» أيضًا وهو يترافع فى هذه القضية وإذا شئت فقل مثل النمر – الأب النصر كما سموه بعد الحرب الكبرى الأولى – أعنى «كلمنصو» عندما ترافع عن «إميل زولا» عقب «لابورى» فنقل عن «هيجو» تلك الاشارة البديعة إلى تمثال المسيح، وكان حتى ذلك الحين يوضع فى قاعات الجلسات خلف هيئة المحكمة ثم قال «... انظروا وراءكم، فهذه أكبر ضحية عرفها التاريخ لأخطاء القضاة...!!».

وكانت قضية «إميل زولا» تدور حول تخطئة حكم سابق فى قضية «دريفوس»...

بل مثل الهلباوى فى قضية «نزاهة الحكم» فى تلك الوثبة الذهنية البارعة، بتلك الآية السماوية الرائعة، عندما رد حقنى باشا محمود رئيس محكمة جنايات مصر فرفض الرد، وراح

الخصوم يوقعون بين الرئيس والمتهم، فتحداهم الهلباوى بالموازنة الهائلة بين المتهم وموسى عليه السلام وبين الرئيس وخالق الرئيس...

لا تجد لتلك التصويرات وأشباهها مَشابه عند «هنرى روبير» لكنك تجد خواطر ممتعة، هى فى حقيقتها حجج مقنعة فى صميم القضية المطروحة.

المترافع العظيم فى العصر الحديث يستفتح مرافعته بصميم الموضوع وصميم الحجج، حتى إذا انتهى من الصميم انتهت مرافعته، أما ما عدا ذلك من الزينة التى تزدان بها المرافعة، فلا ينبغى أن تكون زيادة تزداد من جرائها المرافعة، وبقدر ما يبدو من الأصالة فى المزيج بين الصميم وبين الزخرف، وبقدر ما يسلم من التعمل والاصطناع، ينجح المترافع العصرى فى مرافعته...

سنرى من بعد أمثالا لمرافعات «روبير» فنرى الحجة فى الدقائق الأولى، ونراه ينتهى من مرافعاته إذ تنتهى أدلته، وترى التصويرات البارعة، تستحيل حججًا قاطعة. فلنستمع إليه، يفتح عيون القضاة على الأطباء.

«افتحوا أعينكم على قاعات الدفتريا حيث الأطباء الداخليون والخارجيون عاكفون على أعمالهم، ينتثر الموت من حولهم فى الشهقات والزفرات، ليس منهم من تردد أو ارتعد... ارجعوا إلى إحصاءات الحمى الصفراء والدفتريا والكوليرا، وأحصوا عدد الأطباء الذين سقطوا صرعى فى ساحات الشرف ضحايا واجبهم وتساءلوا بينكم: أهذه هى الطائفة التى تحلمون بإبادتها...!! هؤلاء البنون البررة للعلم، الذين يصارعون الموت فى كل مكان، فيصرعونه تارة، وتارة يصرعهم، لكنهم يستحقون الإعجاب فى كل حال!!.

حذار ثم حذار! أيها الذين تتهمون الطبيب عند قيامه بواجبات صناعته دون أن يكون لديكم الصفة أوالعلم... حذار أن تتهموا أنتم أيضًا بعدم التبصر والإدعاء. إنكم ستلجئون إلى مستشاريكم العاديين، وهم الأطباء الخبراء، فستكونون تحت رحمتهم، وسيكونون وحدهم هم الذين يصدرون أحكامكم...

وإذا تأثرت العدالة بذلك فإن ضحاياها الحقيقيين سيكونون هؤلاء الذين يراد منكم أن تحموهم وهم المرضى...».

أو قوله فى ختام مرافعته عن بوبوروش «... إننى أرجو أن تبرئوا بوبوروش حتى إذا أويتم إلى مساكنكم فى هذا المساء استطعتم وأنتم تطعمون عشاءكم أن تلقوا على زوجاتكم وبناتكم نظرات تتراءى فيها راحة الضمير...».

بل قوله فى نهاية قضية البنكير المصرى (قطّاوى) بعد ما تحدث عن استعمال محامى الخصم

لنفوذه كوزير لدى قاضى التحقيق «وستثبتون ببراءة مدام همبير أنكم تصدرون أحكامًا ولا تؤدون خدمات...».

فإذا واجهته حواجز القانون ولى وجهه شطر المحلفين فسخر من حواجز القانون فى لفتات باهرة، يبدو لك مثل منها حيث يتداول بين أنامله مبدأ «عدم قبول المدعى المدنى فى قضايا الربا الفاحش» وقد استقر عليه قضاء المحكمة العليا، فيجبه خصمه برشاقة وقوة تستفزان لنصرتهما دواعى الذوق والعدالة، فى المحلفين خاصة، كما سنرى فى قضية مسيو ومدام «همبير» وفى قضية «لابورت» حيث يواجه مسئولية الأطباء فيفيض فى إجلال الأطباء، ويتحدى الخائفين من الموت بالعاملين على الحياة.

وكانت وثبات بديهته حديث الجميع، كرده على النقيب «درييه» وقد أسلفناه أو ما رواه «جولتدن» فى أكبر قضايا سنة ١٩٣٢:

وقف «توريز» أمام محكمة استئناف الجنح سنة ١٩٣٢ يترافع عن (فرمون) فى تهمة نصب. وكان هنرى روبير يدافع عن «تاكوشيما» المجنى عليه، وكانت نظرية «توريز» أن «تاكوشيما» نصب على «فرمون» فأصلح «فرمون» ما أفسده عليه «تاكوشيما»، واختتم دفاعه بكلمة مسرحية قال: لقد كانت رواية!... أما الفصل الأول «فتاكوشيما» يضرب «فرمون» والفصل الثانى «فرمون» يضرب «تاكوشيما» وفيما هو يسترسل نادى «هنرى روبير» بالنهاية قائلا: الفصل الثالث: «المحكمة تضرب فرمون».

* * *

كان «هنرى روبير» يوصى المحامين بالتمرس وبالتدريب، بأن يكتبوا دائمًا ويقرءوا دائمًا، ليتعلموا حسن الأداء فالمحاماة فى جملتها حسن أداء، والتمرين العملى مدرسة المحاماة

إن كرسى مجلس النواب لم يمنع «بوانكاريه» من أن يظل مساعدًا للنقيب «دى بوى» فلم يستقل بمكتب إلا بعد أن صار وزيرًا للمعارف، وبعد سبع سنين فى مكتب أستاذه.

وكان «روبير» يقول مقالة الأقدمين إن سر النجاح هو: «أولا: العمل. وثانيًا: العمل. وثالثًا: العمل».

ولقد يكون المحامى موهوبًا، كله كفايات، فإذا لم يجدد نفسه ويزودها بالمعارف، نضب معينه، وغاض ماؤه.

قضى النقيبان «شنى» و «باربو» نحو العشرين عامًا فى زاوية من زوايا المحاماة لا يتسرب إليها النور، فتزودا فى أثنائها بزادهما من التاريخ والآداب والعلوم، حتى إذا انقضى ثلث قرن كان «باربو» يفتح كراساته ليستخرج منها شواهد هى آية الآيات فى المحاماة، بل فى الأدب الكلاسيك.

وكان الحياء يكاد يقتل «والدك روسو» فلم يكف عن القراءة والكتابة والتمرين حتى صار فخارًا للمحاماة ورياسة الوزارة.

ولقد فطر «باربو» فطرة هندسية أو حسابية، وخلق ضامرًا نحيلا، فى حين يحتاج الخطيب إلى روعه المنظر وفخامة المظهر، وكان فى صوته خشونة وجفاف، فى حين يحتاج المتحدث إلى صوت ينفذ إلى الآذان دون استئذان، لكنه حوّل فطرته الرياضية إلى عقلية «رجل القانون» وجمّل جهازه العصبى بالصبر، وأصلح من صوته وجرسه حتى بلغ غاية الدقة والوضوح وانكب على المعرفة يعب منها عبًا حتى إذا واتته الفرصة لم تجد رجلا غمرًا، أو محاميًا غرًا، وإنما استقبلها محام كما قال «لابروبير». «جدير بالمهام العظمى»... قال فى تأبينه «النقيب بيسون بيو» سنة ١٩١٠: «إن قليلين من المحامين قد رفعوا شأننا مثلما رفع».

لكن هنرى روبير، عرف الشهرة فى صدر شبابه فلم يكن ينعم - أو يشقى - بما سماه «الفراغ الإجبارى للمحامين»، ومع ذلك كان يجبر الزمان وصحته على أن يمنحاه الفراغ والعلم. حتى ليكف بصره فى أخريات حياته.

وإذا رجعت إلى مؤلفاته وبخاصة «قضايا التاريخ الكبرى»، تلك القضايا التى تناهز الخمسين عددًا والقضية منها قضية دنيا كاملة، لا تقل مراجعها عن الآلاف من الصفحات - إذن لرأيت كيف بدأ بنفسه فى العمل بهذه النصيحة.

لقد كادت يده تسطر فى هذا المؤلف تاريخًا كاملا لروائع المجد الفرنسى، ولبعض المجد الإنجليزى. من دفاع «فولتير» عن «كالا» وقضايا «سان مارس» و «كاميل ديولان» و «مارى ستيوارت» وطلاق «جوزفين» من نابليون» و «لويس الثامن عشر» و «مارى لويز» وموت «نابليون»، و «قضايا السم» و «هنرى الثامن» و «كارتوش»، والمارشال «ناى» و «الوصاية على عرش فرنسا» و «كونديه» والملك «مورا» وفضيحتى «بناما» و «النياشين» و «مارى أنطوانيت و «عقدها»، و «لاشو»، و «مدام لافارج» إلخ إلخ ...

فلما قدم للجزء الأول منها زميله فى المحاماه وفى المجمع رئيس الوزراء «الرئيس بارتو» اعتذر وهو يقدم «اسمًا هو أكبر الأسماء رنينًا فى الأسماع، يتألف من لفظين يثيران فى الأذهان ذكريات القضايا الخطيرة والمرافعات الكبيرة، وعهد نقابة جليل، وكفايات عظمى وقلب من الذهب...»!

وقال عما عرض له من القضايا: «لقد ألقيت على كل ذلك نورًا يبعث فيه الحياة ويجعله حاضرًا بين ظهرانينا حبيبًا إلى أفئدتنا.. كانت حياتك تجربة طويلة للطبيعة الإنسانية... ولما أصدر «لامارتين» كتاب «الجيرونديين» قال له «دياس» الكبير قالته الكبرى، إذ هنأه، إنه «ارتفع بالتاريخ إلى مستوى القَصَص» - لكنك لم تخلط بين التاريخ والقصص... لقد كان

كلامك القوى، المعجل، المحدد، معبرًا عن شعور حر من المؤثرات يحكم منزهًا عن الغايات... والتاريخ كما فهمته هو البعث من جديد مع الموعظة..».

وقال: «... لقد أطربنى كتابك فإليك تهنئتى ككاتب - وإنى لأنقصك قدرك كخطيب، إذا قلت إننا لم نخسر شيئًا بعدم استماعك. فالكلام عمل لا تجزئ عنه القراءة لكن كلامك مهما قيدته الكلمات يحتفظ بالحياة، وبالنبرات، والقوة، والحركة، الملأى بالمتعة وبالحيوية التى لا تقاوم...».

فى هذه الكلمات الجامعة تلخيص شامل لفن «هنرى روبير» فى الكتابة أو فى المرافعة.

وبهذه المؤلفات علم النقيب العظيم المحامين بالقدوة ما علمهم بالقلم، أن المحاماة كفاح دائم فى سبيل المعرفة كما أنها كفاح فى سبيل العدالة.

* * *

لقد ترامت حدود المعارف القضائية إلى أبعد مما يبلغه الفكر العادى، وأضحى لزامًا لنجاح المحاماة. ما يلزم المبرزين للنجاح فى الحياة، من التزود بزاد عظيم من العلم، بالعمل اليومى المرهق المتصل.

ولئن قيل إن المحامى يشبه الممثل، إن تبعات المحامى لأجل. فالممثل يحفظ دوره عن ظهر قلب، ليتلوه على متفرجين جاءوا ليستمتعوا، أما رجل الدفاع فيواجه خصومًا وقضاة أشربوا فى قلوبهم الشك، تساقط عليه الفجاءات من منصتهم، لا يروعهم الاصطناع ولا الإبداع، وإنما يخضعون للإقناع، بالعلم. والدليل الناهض.

لقد أوشك «مارشال هول» أن ينتزع رأس بنت، وسدون، من المشنقة كما انتزع رأس لورنس وغيره لمعلوماته فى المجوهرات والسموم والسلاح.

وكان إلمام «هنرى روبير» بقضايا التاريخ وبأبطال المحاماة ثروة ذهنية حافلة يسرف فى إنفاقها بالكتابة والخطابة والمحاضرة والمرافعة.

قال «بيكون»: «القراءة تملأ الإنسان، والكتابة تعلمه الدقة، أما الكلام فيجعله مستعدًا».

وقال «فنلون»: «الخطبة العمومية لا تحضر فى ثلاثة شهور، بل يجب أن يكون لدى الخطيب محصول زاخر حصله منذ سنين».

انتهى عهد المحامى الذى يبكى القضاة، وانتهى عهد القاضى الذى يغرق العدل فى غمار الفصاحة، كما ضل «هنرى الرابع» فى مجلس القضاء حين راعته فصاحة المحاميين، عن الخصمين، فقال لكل منهما بعد أن ترافع: الحق معك.

وانتهى عهد هؤلاء القضاة الذين برؤا Phyrne عندما عرضها المدافع عنها.. عارية... لعيونهم...!

انتهى ذلك العهد مذ سن اليونان قانونًا يحول دون حضور المتهم بنفسه أو أقاربه فى الجلسة.. أما فى عهدنا الحاضر فلم يعد أحد بحاجة إلى قانون...

وانتهى ذلك العهد فى مصر من قبل أن يبدأ ذلك العهد فى اليونان، عندما اخترع المصريون الكتابة فأبطلوا المرافعات الكلامية مخافة أن يؤثر حسن صوت المترافع فى آذان سامعيه..

ولئن كانت البلاغة وما تزال عدة المحامين النوابغ، إن المحاماة قد لا تعرف النحو. ولكن إذا سمت لغة المترافع البارع وضع نفسه فى التاريخ، حيث تضع البلاغة خطباء التاريخ... فى ذروة المجد.

والتمثيل الرائع، كالورقة الكاسية فى يد اللاعب، تمسى هى الورقة العظمى، فتكسب كل شىء، أو كعصا موسى تلقف كل كيد، إذا تقدمت فى الوقت المناسب.

فإذا لم يحالفه الحجاج القوى، والعرض الموفق – والمحاماة فى جوهرها عرض موفق، وقوة منطق – أمسى دفاعه كالفصاحة بهرجا، وربما أمسى صاحبها مهرجا.

الفصاحة والتمثيل فى الجلسة على ما شبههما الفرنسيون، مطرقة صاعدة هابطة، يراد بها أن تصيب شيئًا تطرقه. إلا أن الكثرة الغالبة من الطارقين يقضون أعمارهم دون أن يصيبوا... وإن قضوها فى أن يصيحوا – فيذهب طرقهم هباء وصياحهم هراء..

انتهى عصر القضية التى تنظر وحدها فى دور كامل!... وعدونا عصر اللاسلكى إلى عصر تحطيم الذرة، وكلما ألم المحامى بموضوعه أوجز، لأنه يكون أنفذ بصرًا وأصح تعبيرًا وحكمًا.

سئل خطيب كبير كم من الزمن يكفيك لتلقى خطبتك؟. قال: ساعات إذا لم أحضر، وساعة إذا حضرت...! إنها لظاهرة غريبة فى تطور المحاماة... أن يقل كلام المحامين فى المرافعة عن كلامهم فى الخارج!

وإذا قيل ذلك أيام كانت المرافعات ساعات وأيامًا، فكيف وهى تقاس الآن بالدقائق!! والاستحسان ليس غاية ولكنه بداية، والمحامى الجدير باسمه هو الذى يفهم قضاته أن مرافعته ليست له، ولكنها لهم، وأنهم لا يخضعون لنظامه وإنما هو الخاضع لنظامهم.

المرافعة «فعل» «ورد فعل» وتوجيه للآذان وللأذهان، وظروف الزمان والمكان.

لقد ترافع محام عظيم عن المدعى المدنى فى إحدى الجنايات الكبرى بالصعيد طول الصباح، وفى الهزيع الأول من الليل، حتى أعطى المستشارون الكلمة للهلباوى، متبرمين بما سمعوا، ضجرين مما لبثوا... فاكتفى بأن قال كلمات ختمها بقوله: ألتمس البراءة... ورفعت الجلسة... وبرئ موكلوه...

والمترافع كالخطيب الذى يعنى بالأشخاص ثم بالموضوع، أو بالأشخاص من أجل الموضوع.

وإذا بدأ المحامى والقاضى معه فلا خوف عليه فى الغالب. قال «دى بوى» وكانوا ينعتونه «بالسيطرة»: إذا لم ينل المحامى استحسان القاضى لمركز موكله فى عشر الدقائق الأولى فتعسًا له...!

إن افتتاح المرافعة لحظة عصيبة فى تاريخ كل قضية، إذ تتفتح عين القاضى وأذنه، على القضية الجديدة والمحامى الجديد. فإذا تسلم المحامى قياده فى هذه اللحظة لم يكد يفلته.

إن الناس لا يعرفون مبلغ جذل القاضى إذا التقى فى القضية بمحام ثقة. لكأنه يهبط إليه من عالم الملائكة، إلى عالم المنازعات الذى يحيط به.

وليمل المحامى بأسلوبه عن الفكاهة ما استطاع، فالمقام جد، وإذا حانت النكتة فحارت فى شفتيه ألقى بها فى غير المواقف الخطيرة، دون أن يضحك، فلو ضحك كان كأنما يضحك من نفسه!. وإذا استطرد فى التنكيت حسبه القاضى يسخر قاعته للمجون.

وليس الزمن الطويل هو التطويل، والدقائق قد تكون تطويلا إذا هان شأن ما يقال، ولا تكون كذلك، إذا كان ما يقال، فى أيام طوال، جديرًا بالمقال.

المرافعة كما حدثنا الهلباوى هى عدسة المنظار التى تكشف كل الدقائق التى تشتمل عليها الصورة... لتكشف للقاضى التعاريج والمنحنيات الدقيقة التى يعتمد عليها الخصوم فى تكييف المنازعة... والقاضى... فى حاجة لذلك المنظار يساعده على ملاحظة تلك الوقائع..

هى هذه الآلة العالية الصناعة، يقدمها المحامون للقضاة، ليروا من خلال المجهر، مهما بلغ من الدقة والصغر، أحجاما واجراما لم يكن يدركها البصر.

وبقدر ما يتمكن المحامى من صناعته يستطيع فى الزمن القصير أن يعرض خير ما عنده من أمور رئيسية هى مفاتيح القضية، فلا يلام القضاة على عدم السماع قدر ما قد يلام المحامون.

ولا يستطيع المحامى الإقناع بالجدل وحده أو بالقانون معه، بل لابد أن يظهر العدالة فى جانبه.

إن محكمة النقض نفسها وهى محكمة القانون أولا، تكاد تقضى بالعدالة دائمًا...

* * *

إلى هذه الكفايات النادرة جمل الله «هنرى روبير» بالتواضع، وقديمًا قال «لابرويير»: «إن التواضع مع الكفاية كالظلال مع الصورة تظهرها وتوضحها وتجليها».

لقد ترافع قرابة نصف قرن أمام القضاة والنواب، ولم نسمع عنه حادثًا واحدًا كحوادث «لابورى» أو«فيفيانى» أو«إميل أوليفييه» أو «مارشال هول» وقد سلف عنها المقال! أو كأسلوب «برييه» عندما ترافع فى قضية الثلاث عشرة، فقال للنائب العام: «لا... لست حسن النية فى هذا الذى تقول، إن القوانين لا تطبق فى هذه الأيام ولكنها تفسر بما لا تحتمله. إن النصوص ترهق كيما يرهق بها الرجال!» أو كأسلوب «فولتير» عندما قال عن قضاة «كالا»: «لا تذكرونى بهؤلاء القضاة الذين نصفهم قرود ونصفهم قضاة!».

وإذا كانت المحاماة والقضاء هما الصوت ورجع الصوت، فإن شخصية القاضى ومعنى القضاء شطران لا ينفصلان.

وسنرى بعدُ تحياته للقضاة أو لرجال النيابة فى محكمة الجنايات أو محكمة الجنح بل حتى لهذا المحلف الرابع، الذى يقول له: «لقد وجهت من الأسئلة الدقيقة المنتجة ما طمأننى على متاعب الرجل الذى أدافع عنه!».

* * *

فإذا حذر رئيس الجلسة من أن يميل، كاد يغرقه فى سيل من التحايا والإطراء.

أما مع الزملاء والمحامين الحدثاء، فكان خير الزملاء، عطفًا وأدبًا وحسن وفاء، يقارب المحامى الشاب ينصحه ويعينه، ويحيى الموتى من أقرانه مثلما يحيى الأحياء.

إليك مؤلفاته جميعًا تنضح أحلى الذكريات عن الزملاء، وأعظم العبارات عن النائب العمومى «كزنى دى بوربيير» وهو خصمه فى قضية «جابريل بومبار» يروى للقراء من مفاخره فى قضية «رافاشول» المتهم بوضع قنبلة فى مجلس النواب، أن المحلفين كانوا يرتعدون فرقًا إذ جاءتهم كتب بالتهديد، وكان رئيس الجلسة نفسه يكاد يداعبه وهو يتلو عليه صحيفة سوابقه بقوله: «أنا مضطر (!) لأن أذكرك بالأحكام السابق صدورها عليك. إن القانون يحتم على هذا الواجب!» لكن «كزنى دى بوربيير» صاح فى المحلفين «إذا قررتم أن المتهم يستحق الرأفة - ومن المهانة أن نفترض ذلك - فإن هذا لن يكون إلا أثرًا لأخس العواطف وأدناها وهو الخوف! من ذا يخاف فى هذه القاعة؟ إننى سأحرسكم بقوى البوليس إذ تعودون إلى دوركم فى هذا المساء، أما أنا فسأسير على قدمى، دون حاجة إلى حراس. ابعثوا رافاشول إلى المقصلة».

مع ذلك بدا للمحلفين أنه يستحق الظروف المخففة، فلم يحكموا بالإعدام. لكن عناية الله تداركت العدل فقضى بإعدامه فى قضايا أخرى من محكمة أخرى.

أما عن البقية الباقية من الزملاء فتلك تحايا عاطرة لأستاذه «درييه»، وهذه أمداح تتتابع فى

النقيب «مارتينى»، وتقدير لا حد له للخالدين «بوانكاريه» و «بارتو»، و «دى بوى» و «ملران» و «بريان» ذى الصوت العذب عندما يترافع، وهذا إعجاب لا حد له «بلابورى» وحب «لشارل شنى» وإكبار «لباريو» و «روس» و «ديانج» إلى آخر هذا الثبت الحافل بالرجال، الذين تتردد أسماؤهم فى مؤلفاته حتى إذا ساورته المنية استمهلها أيامًا ليكتب سطورًا لم تحل الوفاة بينها وبين الناس، تفيض بالتحايا للقضاة، ولرجال المحاماة... هذه المحاماة التى ملأ الوجود الإنسانى عنها بكلام كأنه الألحان.

obeikandl.com

فى محكمة الجنح

١ - (قضية الأطباء)
أو
الدكتور لابورت
أمام محكمة جنح السين (١٨٩٨)

سادتى:

سيق الدكتور «لابورت» إلى المحاكمة لأنه حاول أن ينقذ سيدة من الموت، بدلا من أن يقف مكتوف اليدين يشاهدها تسلم الروح.

لقد قام بكل واجبه. ومن حقه أن تبرئوه.

ليست شخصية المتهم وحدها التى تجعل من هذه القضية قضية كبيرة، فلقد عانى من الأسى، والمحنة والمهانة، ما لا يمحوه حكمكم، أيًا كان حكمكم، وأضيف إلى بأسائه وخصاصته، ضياع أمله وانهيار مستقبله.

ولئن كان ثمة عزاء له، إن عزاءه فى إيمانه ببراءته، وفى هذه الصداقات التى تحف به، وهذه العواطف التى تحيط به حتى قاعة الجلسة!! مثل من التكافل بين الزملاء، خليق بالتحية والإطراء، تضربه جماعة الأطباء للمهن الحرة كافة.

أترانى بحاجة إلى أن أذكر الجمعية الطبية للمقاطعة الثالثة عشرة... أو الجمعية الطبية لجهات البر... أو اللجنة الإدارية لجمعية أطباء فرنسا... أو الذين شهدوا أمامكم لمصلحة المتهم، بما هو جدير به من العطف والاحترام.

إليهم جميعًا، الذين دعوتهم بأسمائهم والأولى لم أذكر أسماءهم، يتوجه دفاع «لابورت» بالشكر، وبخاصة إلى الأستاذ الذى يجله الجميع الدكتور «بينار»، الذى جاء يجابه تهكم النيابة العمومية، ليدافع عن زميل سيء الحظ، برىء....

من أجل بينار، ومن أجل الباقين، سكن الرأى العام بعد ثورة... وإنى لأرجوكم يا حضرات السادة، الذين تتهمكم ظلمًا، نفوس لم تتح لها المعرفة، بأنكم تدعون الصوت القوى للرأى العام يملى عليكم بعض تشددكم، أرجوكم اليوم أن تستمعوا للرأى العام...

obeikandl.com

أفسحوا فى ضمائركم سبيل الدعوات والصيحات التى تهتف بالبراءة وافتحو قلوبكمْ إلى العدالة، والحقيقة، بل والمصلحة الاجتماعية، لا إلى عواطف المواساة والمرحمة.

ليست هذه قضية رجل أو طبيب، وإنما هى قضية «الطب» وقضية «الأطباء»، إن مستقبل الهيئة الطبية كافة فى الميزان، ومطلوب منكم أن تقرروا إلى أى حد تصل مسئولية الطبيب الخاصة، وعند أى الحدود يقف حق التحقيق، وأين تبدأ المنطقة المخصصة للعلم، الملجأ المقدس، الحرم، الذى لا يدخله رجل القضاء.

إنما يترقب الأطباء حكمكم فى المدائن الكبرى، وفى بقاع الريف النائية، فى كل محلة أو دسكرة، ليعدلوا خطتهم وفقه فيلوذوا عند الحاجة «بالامتناع» تفاديًا للمحاكمة.

وهكذا تمثل الصحة العامة فى هذه القضية، ويقف المرضى والأطباء حيارى، قلقين، ينتظرون كلمتكم.

بل إن الموت نفسه ليخيل إلى، جاثمًا أمام جثمان السيدة «فرسكيه» يتسمع! مترقبًا، نتيجة هذه الإجراءات.

إننى لا أتكلم عن مسئولية الطبيب فى صورة رجل عادى، كأن يجرى جراح مخمور عملية جراحية، أو يصف الطبيب باستخفاف دواء دون آخر. فهذه أو تلك حالة رجل أخطأ، وليست مسألة علمية، وفى هذا نوافق بغير تحفظ على المبدأ الذى أعلنه فى بداية الاستجواب حضرة رئيس الجلسة «مبدأ تساوى الجميع أمام القانون الجنائى» فمن المسلم به فى مسائل القتل الخطأ أن دبلوم الطب لا تمنح صاحبها الحصانة فتجعله بمنجاة من يد العدالة.. إنما الذى ننادى به أن الطبيب ليس فوق العدالة لكنه فى نفس الوقت... ليس طريد العدالة...

لقد أوضح السبيل لنا أحد أساطين النظام القضائى منذ كان نائبًا عموميًا، نعنى به «ديبان» وهو رجل ثقة سواء فى علوم الفقه أو فى صحة الحكم، فانظروا بأى عبارات محددة بين لمحكمة النقض المنطقة الطبية المحرمة على أبحاث القضاء حيث قال: «من ذا يفكر فى أن يفرض على الأطباء أو أى مهنة علمية أخرى مسئولية مماثلة؟ إن البحث فى الحالات المشابهة لا يدور حول العلاج خطأ كان أم صوابًا، أو ضارة نتائجه أم نافعة أو كان غيره خيرًا منه، أو أن هذه العملية لازمة أو غير لازمة، أو أن تنفيذها كان بمقدرة أم بغير مقدرة، أو أن استخدام أداة خير من استخدام أداة، أو أن اتخاذ طريقة دون غيرها كان يؤدى إلى النجاح - فتلك جميعًا مسائل علمية يتناقش فيها الأطباء، ولا يجوز أن تكون محل مسئولية مدنية ولا أن تبحث أمام القضاء».

ولما نهجت المحكمة العليا هذا النهج قررت أن مسئولية الطبيب لا تقوم إلا عن «الخطأ الإختيارى للرجل، والإهمال الفاحش الناشىء عن ترك المريض ورفض الاستمرار فى العناية

به ورفض زيارته مع طلبها منه»، واستبعدت من المناقشة ما يتعلق بالأمور العلمية.

تلكم هى النصوص والمبادىء القانونية التى نعتمد عليها لا نستعيرها من «القانون الرومانى» ولا من «الشاعر موليير» كما استعار حضرة الأفوكاتو العمومى فى مرافعته. وليست مبادئنا ونصوصنا، مع ذلك، أقل حسما ولا أدنى حجة!

فلنطبق هذه المبادىء على قضيتنا لنرى كيف أنه، إذا استثنينا حالة الخطأ الجسيم التى لا يمكن كشفها هنا، يضطر الإتهام إلى أن يحتمى بالمنطقة العلمية الحرام، وأن يقيم نظريته على قلة دراية مزعومة فى الطبيب وهو يجرى العملية.

وإذ كانت تهمة الجهل وعدم الحيطة، طالما وجهت إلى الدكتور لابورت فى هذه القضية، فإن من الضرورى أن أعرفكم به بادى الرأى، وبخاصة من الناحية الطبية.

هو فرع من عائلة ممتازة، يحتل أخوه فى تونكين (فى الهند الصينية الفرنسية) مركزًا ذا شأن بين رواد الحضارة، وكثيرون من أقربائه شغلوا مناصب إدارية ذات بال، وإنى لأتجاوز عن ذكرهم، لا لأنهم ينكرونه اليوم، ولكن لأن «لابورت» ليس من هؤلاء الذين يحتمون بأمجاد أقربائهم.

ولما منحته كلية باريس دبلوم الطب بعد عمله بالمستشفيات راح يبنى لنفسه مستقبلها.

سافر مخترقًا المحيط الأطلسى ثمانية عشر شهرًا، طبيبًا لإحدى البواخر، وعاد إلى باريس يقيم مع أمه فى شارع «واجرام» ثم شارع «جوفروى»، لكن العملاء، فى أحياء الأغنياء، لا يفدون على الطبيب الناشىء المجهول، إلا قليلا، أو لا يقدون أبدًا... وإذن فليصنع كطبيب ما يصنعه المحارب من اختيار ميدان المعركة، وليذهب إلى أحد أحياء الفقراء حيث المنافسة أقل، والحياة أسهل.

واستخدم آخر موارده ليعفى أهله من نفقاته، وسكن مسكنًا متواضعًا أجرته فى العام ٣٤٠ فرنكا.

عرف كل الذين عرفوه والذين رأوا عمله، أنه رجل عمل، بحاثة، وأنه حيى كما سمعتم أمس فى هذه القاعة ما أكد لكم أم العمليات القليلة التى أجراها قد استحقت ثناء المرضى والزملاء.

اختار لنفسه لقب «طبيب مولد» وهو اللقب الذى يلومه عليه حضرة الأفوكاتو العمومى!

ولكن فيم تلومه؟ أليس يعرف مسائل الولادة؟ لقد أجمع أطباؤك الشرعيون أنه لم يحد عن قواعد الفن إذ كان يولد السيدة «فرسكيه» تلك الولادة العسرة، ولقد بين لنا أمس أستاذ المادة الذى لا قرين له، أن الدكتور «لابورت» علل ببراعة كل ما عمله من أعمال وأنه فى

استعماله الملقط، دون أن يحدث ضررًا بأجزاء الجسم الداخلية، قد أثبت خبرة جديرة بالإعجاب حقًا.

لقد كان له كل الحق فى أن يحمل لقب «طبيب مولد» مهما قلت - يا حضرة الأفوكاتو العمومى - من أنه لم يمارس عملية التوليد إلا مرتين، وإلا فكم من العمليات تتطلب، لكى يستحق تلك التسمية!.

أفلا يستطيع المحامى أن يحمل لقب المحاماة قبل أن يترافع أولى مرافعاته أفلا يحمل وكيل النائب العام لقب وكيل النائب العام قبل أن يمثل النائب العام فى الجلسة؟ أفلا يسمى قاضى التحقيق قاضى تحقيق قبل أن يجرى تحقيقًا...! أترى يعوز هؤلاء شرف الصناعة إذا استعملوا هذا الحق الذى تنازع فيه الطبيب قبل أن يطول مرانه..

إليكم بيان الظروف التى واجهها فى تلك الليلة الليلاء - ١١ سبتمبر سنة ١٨٩٧ محاولا توليد السيدة «فرسكيه» باستعمال الملقط.

بدأ الوضع بداية سيئة فى نحو الحادية عشر والنصف مساء!.. إذ علم هنالك من الممرضة أن السيدة فرسكيه ولدت خمس ولادات من قبل وكانت جميعًا متعسرة، وأن الملقط استعمل فى ولادة أربعة منهم، وأنها تعانى آلام المخاض من يوم سابق. وأن الممرضة الشابة التى زارتها فى بداية الوضع قررت أن ليس ثمة وجه للاستعجال، فبارحتها.

وهكذا تراكمت الأخطاء التى ارتكبها غيره قبل أن تطأ قدماه عتبة الدار.

وسترون فى هذه القضية التى اتهم فيها وحده كيف تقع المسئوليات الكبرى على كواهل غيره ممن جاءوا إلى هذه القاعة يشهدون!.

رجعت الممرضة فى صباح ١١ سبتمبر سنة ١٨٩٧ فبدا لها أن الآلام قد زالت فانصرفت. ولم يدعها أحد بعد ذلك، فعادت من نفسها فى الثامنة مساء، وكان الكيس قد انفجر بعد الظهر وهى علامة من الطبيعة تنبىء باقتراب الخلاص... فلماذا لم يبعث المسيو «فرنسكيه» فى طلب الممرضة؟

ولو كانت الممرضة إلى جوار السيدة، وهى تعرف وضع الجنين المعيب، لبعثت من فورها فى طلب الطبيب!!.. وإذن لكان محتملا أن تتفادى كل تلك المضاعفات.. وأيًا كانت الحال، فقد كان فى الإمكان التصرف بحرية وفى الوقت سعة، فالممرضة لم تطلب معاونة الطبيب إلا فى الثامنة مساء إذ تراءت لها نذر الخطر. ومع ذلك أفهمها الزوج أنه لا حق له فى المعونة المجانية على يد طبيب الإسعاف (الليلى) إلا بعد العاشرة مساء!. وأن عليهم أن ينتظروا..!

وهكذا يا حضرات السادة، نرى فى باريس، وفى نهاية القرن التاسع عشر، أنه يجب على

الإنسان، كى يعالج أو يموت بالمجان، أن ينتظر دقات الساعة التى تحددها بلدية باريس.

تحملت الممرضة مسئولية المضاعفات التى نجمت فى الساعتين المذكورتين، ووافقت على انتظار مده كان لها - بل كان عليها - فيها أن تستدعى الطبيب. أما الزوج، وهو العليم من حالات الوضع السابقة بما تتعرض له زوجته من الخطر، فقد آثر أن ينتظر!!... مترددًا فى أن يضحى خمسة الفرنكات التى كانت معه - كما أثبت التحقيق - فيدفع أجر الطبيب، فهو بهذا الخير الذى لا إصلاح له قد عرض - عن علم - أم العائلة للفناء، وتلكم هى الخطيئة النائية والحماقة البالغة.

لم يتمكن الدكتور «لابورت» من فحص السيدة إلا فى الحادية عشرة والنصف، بعد أن استبانت الممرضة ألا معدى عن وجوده، فوصل مزودًا بملقطه - وهو يؤكد أن الرسول الذى دعاه لم يخبره إلا عن حاجة الحامل إلى (ملقط) وإنه ليطلب إلى المحكمة إذا خالجها الشك فى ذلك، أن تسأل هذا الرسول.

وإلى هذا فقد قالت الممرضة أمام «مدام فرسكيه» إن الحالة لا تحتاج إلى استعمال الملقط!

هاهو ذا الدكتور لابورت إلى جوار مخدع السيدة البائسة تسوء حالتها حينًا فحينًا، يبذل قصاراه لفحصها، على ضوء شمعة يتصاعد منها الدخان، بين نظرات كارهة من الجارات الثرثارات، اللواتى جئن باسم المجاملات، يملأن أسماعهن، ويشبعن فضولهن، من آهات السيدة وأناتها، فازدادت سوءا، وكان أول مبادىء الحكمة أن يخرج الطبيب هؤلاء الفضوليات، اللاتى لا عمل لهن إلى جوارها، فكانت حيطة نافعة للمريضة، ونكبة بالغة للطبيب!.

لقد تجمع هؤلاء المتفرجات اللواتى أصبن فى أملهن، خلف باب، مسدود كمفتوح، فتحولن إلى جاسوسات، خصيمات، ينتقدن كل حركة تجريها يد الطبيب.

استعمل الملقط ثلاث مرات على غير طائل، وتحرج الوضع، وخارت قوى المريضة، فهى تتوجع من أربع وعشرين ساعة، وانقباضات الرحم تجعل الولادة محالا، بل كان الجنين ميتًا فلم يكن يساعد بحركاته فى الخروج، وهذه الوقائع المسلمة تظهرنا على مبلغ الخلاف بين الممرضة والشهود.

شهد المسيو «فرسكيه» والسيدة «هوبير» أن الجنين كان ما يزال حيًا إذ باشر «لابورت» تشريح الجمجمة وأن الممرضة سمعت دقات قلبه، أما هى فقررت أنها لم تسمع لقلبه دقا، وأنه كان ميتًا.

لقد كان على الدكتور «لابورت» فى ذلك الوقت أن يسلك واحدة من ثلاث:

إما أن ينصرف ويدع الطبيعة تصنع صنعها، وكان هو الوفاة، ولكن بلا لوم على الطبيب... وكان ذلك دناءة... لا جريمة!.

وإما أن يستمر فى استعمال الملقط رغم ما منى به من الخيبة فى ثلاثة أرباع ساعة كلها محاولات، فيقضى على كل مقاومة للسيدة، وينزع الجنين، ويمزق جسد الأم، فيرتكب عملا من أعمال الوحوش إذ يقتل المريضة.. ولا جناح عليه.

وإما أن يلزم مكانه ويؤدى واجبه. فيقوم بإجراء عملية خطيرة أفهمته معلوماته الدراسية ضرورتها، والعجلة اللازمة للقيام بها، رغم ما يحيط به من ظروف غير مواتية، من أنعدام المعونة الواجبة، والأدوات الخاصة، ومع ذلك يقوم بها من فوره، وحيدًا، فى الظلام، وفى أعالى الدار...

كان ذلك هو الواجب الذى أملاه العلم وذمة الطبيب، ولقد إختار القيام بواجبه.. فجوزى بالاتهام..

أيها الفتى التعس: ماذا صنعت!.. لقد كان المخرج لك أن تبرح الدار وتدع المريضة تلفظ أنفاسها الأخيرة فى هدوء!. وكنت ستتقاضى العشرين فرنكا بعينها.. أما الشهرة فأنت العليم بأنها لا تلتمس فى العراء، تحت أسقف الفقراء.. لقد كان لك أن تلقى السمع إلى صوت الدناءة فتنجو. أما شرف المهنة فلا شىء لأن المصلحة كل شىء!!!

أفكان من الحكمة أن ينصح المريضة هذا النصح فى ذلك الموقف الميئوس منه؟ لقد كانت «مدام فرسكية» فى آخر مراحل انهيارها بعد المحاولات الثلاث الخائبة لاستعمال الملقط، وكانت العقدة تدنو من حلها الرهيب!... بصرف النظر عن إرادتها التى أعلنتها إلى الممرضة أولا وإلى «لابورت» ثانيا، أنها ترتاع من الذهاب إلى المستشفى.

أفكان عليه كما تقولون أن يعرضها إلى مخاطرات المحفة والانتظار الطويل، وقد يكون على غير طائل، لمجىء النقالة - وفى كلمة واحدة يعرضها للموت المحقق وفى الطريق العام. ولقد كانت نائمة ومن المحتمل أن تصحو.

ثم ما الذى كان يفيده سوء استعمال هذا الحق؟ حق الاستعانة فى المستشفى بكبار الأطباء لقد كانت الساعة الواحدة والنصف صباحا، وليس فى المستشفى أساتذة كبار إذ لا يبيت فيه إلا الطبيب المقيم وممرضة، هما أقل خبرة من «لابورت»! وكانا سيلتزمان - فى إنتظار الرؤساء الإداريين - إعطاءها العلاجات المؤقتة، وهى هى العلاجات التى عولجتها. حتى جاء الدكتور «بالوا» فى الغداة ورأى أن تنتقل إلى المستشفى - فلم يكن يترتب على إجراء النقل إلا أن تستيقظ المريضة لتبقى دون تصرف، فى ذلك المكان الذى تكرهه.

وإذن فهل يكتفى الدكتور «لابورت» بأن ينتظر قدوم طبيب آخر أكثر اختبارًا؟ ومن يستدعى؟ وبأى صفة! وكم من الزمن ينتظر؟ ومن ذا الطبيب الذى يعلم أن طبيب الإسعاف - «لابورت» - إلى جوار مريضة، فيذهب لينضم إليه، أو ليحل محله؟

الواجب إذن أمام «لابورت» وإن عليه أن يقوم بواجبه...

ولقد تكون نجاة المريضة فى إجراء تلك العملية النادرة التى لم يجر بها من قبل إلا على «النماذج» وهو تلميذ، وهو يعرفها، ويقدر عليها، فليقم بها، وهو القاضى الوحيد ذو القول الفصل فى إجرائها من عدمه، لأنه يعمل فى أخص اختصاصاته كطبيب.

إنه وحده رأى المريضة، بذاتها، فى تلك الساعة بذاتها، وهو وحده يستطيع أن يدرك الخطر على حياتها.

وفى هذه اللحظة، الفاصلة، التى لم تك فيها قوة إنسانية أخرى تساعده، استطاع أن يقدر وحده أين، ومتى، وكيف، يتصرف.

والرجل الذى يدرك الواجب إدراكه لا يتردد، بل يعمل العملية من فوره وليعب ذلك عليه من يعيبه، وليعب عليه أنه لم يستعمل الآلة التقليدية، أو استعمل أدوات أولية، فلقد كان من حقه أن يصنع ذلك كما أكد الخبراء وكما تقرره مؤلفات العلماء. لقد صاح البروفسير «تارنييه» بأعلى صوته فى أحد المؤتمرات قائلا: «هل بى حاجة إلى أن أقول: إنه يجب تعقيم الأشياء وتطهيرها!. ومع ذلك عرضت لى حالة مستعجلة قنعت فيها بنصف دستة من المناديل أخرجتها من دولاب المريضة ووضعتها - مطبقة كما هى - فى الرحم».

أأذكر لكم أخيرًا «تروسو العظيم» الذى أجرى عملية فتح قناة التنفس لأول مرة دون أن تكون لديه آلة واحدة من أدوات الطب، إذ أحس بتوقف التنفس فى حلق المريض الصغير، فأمسك بسكين مطبخ دون أن يفكر حتى فى مسحها، ليفتح فيدخل خلالها أنبوبة ماسورة من الرصاص تأذن للهواء بالدخول انتزعها من جهاز الغاز!.

ها هو ذا الابتكار الطبى فى منتهى بساطته العبقرية! فإذا نجحت العملية صار الطبيب عظيما.. وإذا أخفقت صار أثيما. وسقناه إلى السجن..

أفلا نسائل بهذه المناسبة هيئة الإسعاف العامة، التى توفد أطباء حديثين فى هذه الخدمات الشاقة، وهى مدركة أن أحدًا منهم لا يملك الأدوات الثمينة اللازمة. لماذا لا تضعها تحت تصرفهم، ولو فى نقط البوليس؟.

لقد اضطر الدكتور لابورت إلى أن يطلب من السيدة «فرسكيه» (صندوق أدواتها) فإن إتزانه لم يفارقه لحظة - وإختار أدنى الآلات منها إلى طلبه، بينما يحدق به جو من السخيمة، تنفث فيه السخط أنفاس النسوة الثلاث الصاخبات المشتركات (الأبونيهات) فى كل ولادات الحى، اللواتى خاصمته لأنه أدى واجبه بإخلاء الغرفة منهن، فكن سعيدات بإخفاقه، سعيدات بأن يأذن لهن إلى الدخول باسم المساعدة، فتقاسمن أعضاء المريضة مشغوفات بما فى أيديهن من

غنيمة! تحفزهن مناظر الألم، يتحسسن حركات الطبيب، وهن لا يعرفن شيئًا ولا يستطع تقدير شيء، لكنهن بما فيهن من حقد وتطلع خائب، يلمنه طورًا لجراءته وطورًا لجبنه!

وياليتهن -وياليت المسيو «فرسكيه» مثلهن- منع بالتعليق ولنقد! لقد استجوبت إحداهن «لابورت» وعابت عليه جفوته، أما فرسكيه فنزع لأنه من بين يديه، وعترض على إدخال الإبرة ثانية، وجاءت أخرى تنزع المقص، وفى هذه الظروف المؤلمة، فى وسط هذا المجمع، وهذه الشتائم، بل هذهاالقسوة، أصر الطبيب على أن يجرى العملية... الطبيب الذى لم يشبع جوعته، ولم يتم كفايته.. الذى أصر فى الثانية صباحا، فى ضوء سيىء، ومساعدين سيئين، وأدوات سيئه على أن يجرى بسرعة، عملية من أخطر لعمليات وأدقها!. ومع ذلك تلوموبه لأنه لم ينجح!

إن الاتهام ليس إلا لهذا - لأن الطبيب جاء لإنقاذها فماتت... فهو مسئول..

تعليل إنسانى حقًا!. إنسانى مع الأسف!. فإن غرائصنا ترتعد فزعا من الموت، إذ نحس أننا دائمًا تحت رحمته، فتؤاخذ المنوط بهم أن يدفعوه لإخفاقهم فى أن يردوه..!

يحدونا الغرور الزائف إلى أن نكابر فى الهزيمة أمام هذا القادر الذى لا راد لقضائه!. فتتحول نقمتنا التى لا تنال منه، إلى الطبيب، فى ولولة حاقدة، ليست إلا تعبيرًا موجعًا عن الضعة والغرور الإنسانى!

ذلك هو الباعث الخفى، الحقيقى، القضية القائمة..!!

ولما قبض على «لابورت» بعد ثمانية أيام من إجراء العملية كان يحسب أن العملية نجحت!.. وأن محاولاته توجت بتاج العبقرية... فيا لسخرية الأقدار..

تقول النيابة إنها أول مرة يجرى فيها عملية تشريح جمجمة، ويا لها من قالة عجب؟

أليس واجبًا أن يعمل عمل للمرة الأولى؟. إنما المهم: أواجبة كانت العملية أم لا واجبة!.

لقد اتفق الدكتوران «بنيار وميجرييه» على ضرورتها وكرر أنه كان مستيقنًا نجاحها ويبدو أن المرضة كانت تشاركه إعتقاده.

تم التوليد بلا نزيف ولا اضطرابات أو مضاعفات ظاهرة. فهم «لابورت» بأن يفصل، فسألته المرضة أن يكمل للخلاص، فصنع، وزودها بالنصح اللازم ومضى... ولم يستدع بعد ذلك، ولم يكن عليه - كطبيب ليلى - أن يعود.

تلكم هى الملابسات جميعًا ليس فيها حادث واحد يشير إلى أنه ارتكب خطأ جسيما كرجل.

أما العملية نفسها وطريقة إجرائها فليس على أن أتكلم فيها، وليس لكم أن تحققوها.

ومع ذلك فيجب الكلام فى درس التوليد الذى ألقاه حضرة الأفوكاتو العمومى للجمهورية.. «وأخذ يناقش تقارير الخبراء والأفوكاتو العمومى» ثم قال: وهكذا تنهار على التعاقب أسباب الاتهام ولا يبقى منه إلا حاصله وهو يتلخص فيما يأتى:

لم يكن «لابورت» حاذقًا إذا خاطر بالعملية. ولم يكن حازمًا إذ لم ينجح فيها!.

لكنك لا ترى، ولا تريد أن ترى، أن هذين النقصين فى الحكمة وفى الحزم، وهما غير ثابتين، لا يقعان تحت طائلة العقاب.

فى هذه الساعات الفاصلة فى حياة الطبيب، حيث يضغطه الزمن، ويتهدده الخطر، وحيث الموت فاغر فاه، يشجع الطبيب الهياب، ويتخذ من فوره قراره، ولا معقب عليه فيه إلا العلم الذى يوحى إليه، والضمير الذى يحكم عليه.

إنك تريد يا حضرة الأفوكاتو العمومى كما تقول أن تضرب فى الدكتور «لابورت» مثلا للهيئة الطبية كافة؟. ولكن لماذا تعمدون لإصلاح الخطايا إلى انتخاب الضحايا من الضعفاء والمتواضعين؟.

كم من المرضى لفظوا أنفاسهم الأخيرة فى أثناء العمليات بين أيدى كبار الأطباء، فهل جرؤت على أن توجه إليهم الاتهام؟ لو كان ثمة فساد فى الهيئة الطبية – وهو ما لا أود تصديقه – فاضربوا على أيدى المفسدين! ولكن ابدءوا بالرءوس! اضربوا كبار الأطباء، كبار الأسماء، وسيستطيع هؤلاء أن يجيبوكم، وعندما يجىء المثل من عل، تكون له رنة فى الأذن!

ولكن أين تبصرون فسادًا فى الطب الحديث؟ ألا تبصرون إلا عدم النجاح، ألا تسمعون إلا صيحات الشكاة؟

أفما رأيتم ما يحيط بكم من ضروب الجسارة وإنكار الذات والتضحيات التى تقدمها لنا الهيئة الطبية الفرنسية الجليلة، الخصبة فى إنتاج الأبطال والضحايا.

افتحوا أعينكم على قاعات الدفتريا حيث الأطباء الداخليون والخارجيون عاكفون على أعمالهم، ينتثر الموت من حولهم فى الشهقات والزفرات، ليس منهم من تردد أو ارتعد... ارجعوا إلى إحصاءات الحمى امصفراء والدفتريا والكوليرا، وأحصوا أعداد الأطباء الذين سقطوا صرعى الواجب فى ساحات الشرف، وتساءلوا بينكم أهذه هى الطائفة الثائرة التى تحلمون بإبادتها!.

هؤلاء البنون البررة للعلم، الذين يصارعون الموت فى كل مكان فيصرعونه تارة، وتارة يصرعهم، لكنهم يستحقون الإعجاب فى كل حال! الذين يتوارثون أعلى الفضائل وأعظم الشجاعات: الشجاعة المدنية.

والآن يا حضرات السادة: أتريدون أن تعرفوا إلى أى مكان تقودكم نظرية القسر التى لم يسمع بمثلها فى البلاد، والتى يراد منكم أن تفتتحوا عهدها؟

هل تجدون نظرية (ديبان) أكثر سماحة وملاءمة للأطباء؟

هل ترون تعديلها بالتغلغل بالتحقيقات والتنقيب عن المسئوليات؟

* * *

حذار! ثم حذار! أيها الذين تتهمون الطبيب عند قيامه بواجبات مهنته دون أن يكون لديكم اللقب أو العلم... حذار أن تتهموا - أنتم أيضًا - بعدم التبصر والادعاء! إنكم ستلجئون إلى مستشاريكم العاديين وهم الأطباء الخبراء، فستكونون تحت رحمتهم، وسيكونون وحدهم هم الذين يصدرون أحكامكم، فسيكون قضاؤكم تحكما ونتيجة للنزاعات المذهبية، وإذا تأثرت العدالة بذلك فإن ضحاياها الحقيقيين سيكونون هؤلاء الذين يراد منكم أن تحموهم، وهم المرضى.

أجل كل أولئك الذين لابد لإنقاذهم من معجزة، الذين لا ينجيهم إلا عملية ذات خطر، يقبلون إجراءها مع علمهم بخطرها، كل هؤلاء تتراءى لهم فى هذا اللحظة الحالية صور أطبائهم وهم يترددون؟

إنما هى صيحة تحذير للهيئة الطبية قاطبة... لهذه الكوكبة من أطباء الريف، الذين ليسوا جميعًا من المشاهير ولكنهم ليسوا أقل اقتدارًا على تخفيف الألم وبرء المريض، فإذا كان الطبيب منهم يقاد إلى المحكمة ليحبس ويلوث، لأنه واجه حالة خطيرة فأجرى عملية لم تنجح، فإن الخير له كل الخير أن يمتنع فيدع المريض يموت ذلك الموت الجميل... ذلك هو مقالهم اليوم يردده الأطباء كافة. أجمعوا رأيهم على أن يجيبوا عن نظرية التفتيش (محكمة التفتيش) بعملية «الامتناع»!

ذلك نظام وقوف الأطباء مكتوفى الأذرع أمام الألم. نظام «دعه يمت».

وإذا كان منهم من يسمو بواجبات المهنة فوق كل شىء أو كان منهم من يخاطر بعمل المستحيل فى مخدع المريض المشرف فحذار أن يتذكر ذلك فى الساعة الفاصلة، فى اللحظة النهائية، وفى يده مبضع الجراح، أداة الفناء، يريد أن يجعل منها أداة بقاء، محاولا أن يحدث بها الجراحة المنقذة،

حذار أن تطوف بمخيلته عندئذ ذكريات «لابورت» الطبيب الشاحب السجين.. حذار أن تطوف الرؤيا المروعة لهذا الطبيب وهو يجر إلى السجن،

حذار أن يسيطر عليه هذا التأثر المؤلم فى ساعة تستوجب أن تتوافر عنده حرية نفسه فى

كمالها» واتزانه فى تمامه، فيتذكر الطبيب أن شرفه كله، وسمعته كلها، وحريته كلها، فى الميزان.

إن العدالة نفسها بذلك البطش الذى ليس من سمات العصر ستتكافل جميعا فى أن يزيغ بصره وترتعد يداه!!

إن الدكتور لابورت أمامكم وستصدرون فيه حكمكم».

❁ ❁ ❁

لو أنى لم أكن أعرف الرئيس الذى يدير هذه الجلسات، أو كنت أجهل المواهب النادرة التى يزدان بها قلبه ونفسه، وتذكرت الكلمات التى قيلت فى أثناء الاستجواب - فقوانيننا بنص يؤسف له، تجعل القاضى الذى يستجوب هو القاضى الذى يحكم - إذت لأخذتنى الرعدة مخافة أن يكون ثمة رأى سابق يعكر الصفو فى ضمير القضاء! لكنى أدرك أيضًا أن الرجال أصحاب العاطفة المندفعة، هم أدنى الرجال إلى التسليم بالحقيقة وأكثرهم استجابة إلى الإنسانية والسماحة.

وإلى هذا تطمئن نفسى.

إننى أطرح بين أيديكم شرف هذا الرجل وحريته، وديعة مقدسة أُودعكموها وستردونها إليه سالمة.

obeikandl.com

٢ - قضية المسيو ومدام (همبير)
ضد
المصرفى المصرى قطّاوى
أمام محكمة جنح السين سنة ١٩٠٨

اتهم المسيو «همبير» وزوجته المسيو قطاوى بتهمة الإقراض بربا فاحش وبالتزوير وحفظت الشكوى - فرفع قطاوى دعوى البلاغ الكاذب ضد «همبير» وزوجته فترافع عنهما «هنرى روبير»

قال: عندما اعترض الأستاذ «رودلف روسو» - بحق - منذ لحظات على اعتراضات الجمهور الذى تزدحم به هذه القاعة بدرت منه كلمة تحكم على المرافعة الطويلة الشاقة التى بذل فيها مجهودًا اجتماعيًا وفكريًا ظاهرًا قال: إن أحدًا لن يمنعنى أن أقدم «الدفاع» عن المسيو قطاوى.

فلنسجل عليه هذه الكلمة، لأنها تقضى فى كل القضية.

لقد لاحظ فى بداية ملاحظاته - مدفوعا بقوى الأشياء - أن عليه أن يدافع عن الوزير الذى ترفرف ظلاله على هذه الإجراءات، وغفل عن أمر الحفظ الذى ظفر به المسيو قطاوى ظنا منه أنه مايزال متهما فعمل جاهدًا لتبرئته لالاتهام المتهمين الحاليين.

ولقد خيل إلىّ فى إبان مرافعته أننا لا نترافع فى قضية البلاغ الكاذب المرفوعة من البنكير المصرى إيلى قطاوى ضد «مسيو ومدام همبير» بل خيل إلى أننا نترافع فى قضية الربا الفاحش التى يحتل فيها المسيو قطاوى محله الحقيقى فى قفص الاتهام. لقد نجا قطاوى بأعجوبة من محكمة الجنح.. وسأدلى لكم بالأسباب السرية لأمر الحفظ غير الموفق الذى صدر فى الدعوى.

لن أشق عليكم بالتفاصيل ولا بالأرقام، وبحسبى أن أتلو عليكم نتيجة تقرير الخبير، وأن أضع تحت أعينكم تقريرات قاضى التحقيق نفسه، وأدع بين أيديكم السؤال الوحيد لتجيبوا بأنفسكم عنه وهو: هل كان «المسيو ومدام همبير» حسنى النية عندما قدما الشكوى ضد قطاوى بالربا الفاحش وهل له الحق فى مقاضاتهما بتهمة البلاغ الكاذب؟

عندما ظهرت فى الصحف الأنباء الأولى لهذه القضية - فلقد أشارت إليها الصحف إشارة أهل العلم قبل أن تصل إلينا عريضة افتتاحها! - ظن رجال حسنو النية أن ثمة أضحوكة يراد

بها الدعابة باختراع أكذوبة خطيرة.. فلقد كان عملا جهنميا ومع ذلك كان صحيحا.

بل تساءل صحبه وحاشيته المقربون: هل أصابته لوثة!!

فإن هذا الرجل لايطمح إلا إلى شيء واحد. هو الظلام، هو الصمت، اللازمان له ليجمع الملايين ... وأخيرا فإني أشكر لزميلي ما في مرافعته من صراحة أفهمتني أن هذه القضية لم ترفع إلا فزعًا من المحلفين، ذلك بأنهم يخشون البصيرة النافذة لمحلفي السين. (باريس).

يخافون أن نذهب إلى محكمة الجنايات فنظهر كيف ذابت رءوس الأموال الفرنسية عند هذا البنكير المصري، فلا يمالىء المحلفون ذلك المرابي الأشهر، ويريدون أن ينفخوا «مدام همبير» بالهواء ليجبروها على الإفضاء، في القضية الحالية، حيث قلدت بالصمت في التحقيق، نفس قاضي التحقيق، لكنه شرك واسع الخروق، لن نقع فيه - فلن تقول اليوم «مدام همبير» ما لم ترض قبل أن تقول - وسنقوله للقضاة الطبيعيين للقضية، محلفي محكمة «جنايات السين».

ولنقصر المرافعة الآن على القضية الحالية:

في ٢٩ مايو سنة ١٩٠٢ صدر أمر الحفظ في الشكوى المقدمة ضد قطاوى قبل أن تشكل بأيام الوزارةالتي أصبح عضوا فيها المسيو.. «فلان». وكان يوم ذلك محاميًا عن قطاوى.

وإليكم نص قرار الحفظ:

حيث إن شهر إفلاس «فردريك همبير» بحكم من المحكمة التجارية يطبع المعاملات بينه وبين قطاوى بالطابع التجاري.

«وحيث إن التهمة فضلا عن ذلك ليست ثابتة ثبوتًا كافيًا».

والحيثية الأخرى حيثية دارجة مبتذلة، لم تكتب بخط القاضي ولكنها مطبوعة.

قلت من قبل إن أمر الحفظ لم يكن عملا موفقا. فهل احتوى الدليل على براءة قطاوى؟ كلا على الإطلاق!

أو هل تضمن أن التهمة غير صحيحة؟ كلا. كلا!..

إنما نجا المسيو قطاوى لأن المسيو «همبير» كان تاجرًا..!

ولو كان موكلاي يريدان تأخيرًا للقضاء في هذه القضية لقالا: إن «مدام همبير» والآنسة «دورنياك» - أختها - غير تاجرتين فلا حجة عليهما لأمر الحفظ، ويومئذ كانت المعارضة في الأمر كافية للتأخير.. وكان يكفي أن نطلب التأجيل..

ولو صنعنا ذلك لهز الخصم عطفية جذلاً، لأنه لايريد من هذه الاجراءات إلا أن يتراجع «المسيو ومدام همبير».

لكنهما جاءا يطلبان أن تحاكما.

وأيا كان السلطان الذى يمكن أن يستغله المحامى السابق الأستاذ «فلان» فنحن ندرك أننا نترافع أمام قضاة نزهاء لن يستجيبوا لغير داعى العدالة.

لقد قرأت من قبل أمر الحفظ، ويبدو لى أنه قد أسىء تحريره وأن الحيثيتين اللتين قام عليهما يجوز تغييرهما بالآتى:

«من حيث إن محامى قطاوى السابق على وشك أن يتولى الوزارة »

«ومن حيث إن من الضرورى إصدار أمر حفظ من أجله..»

وإذا كان هذا قولا غير قانونى؛ فإنه يكاد يكون القول الحقيقى.

وعندما ذاع نبأ القبض على مسيو همبير وزوجته أديرت كئوس الشمبانيا فى وزارة.. وأظنها أديرت فى دار المسيو.. صهر قطاوى أو فى دار قطاوى نفسه..

فلندرس الموقف بالنسبة لقطاوى و«المسيو همبير» وزوجته دون تعرض لتحقيق يفيض بوجوه من البطلان لاتقبل التصحيح، سنتقدم بها فى الوقت المناسب.

ليس من الضرورى أن نتناحر كما صنع زميلى عن قطاوى فى همة وفصاحة ليستا فى مقدورى.. فهو لم يرحم أحدًا فى مرافعته، حتى المسيو «جوستاف همبير».. وأنا أقف عند هذا الاسم، فلقد زارتنى سيدة فى الثامنة والسبعين. عظيمةالنشاط، عظيمة الأسى، هى أرملة وزير العدل السابق فأفعمت قلبى بهجتًا.

لقد احتجت بكل قواها، مستمسكة بثقتها المطلقة فى شرف زوجها ولا أستطيع مع هذا إلا أن أعلن الدهشة لما ورد من أقوال على لسان زميلى عن الخصم.

وكما لم يرحم الموتى، لم يرحم الزملاء.. ولو عن لى أن أستعمل فى هذه المذبحة نفس الأسلحة؛ فما كان أهون الأمر، لكن المحامى لايملك الكلام ضد المحامين الآخرين. فلن تسمعوا منى اسمًا لزميل.

* * *

إذا بحثنا تفاصيل العمليات الأولى بين قطاوى و«مدام همبير» برز لنا فى بداية العمليات دليل الربا.

لقد أوضح لكم الأستاذ «روسو» نفسه بين تأثرنا العميق، أن أولى العمليات كانت عن بيع «عقد الإمبراطورة القديم» ولا أعرف كيف تناهى العقد فى سنة ١٨٧٧ إلى عائلة قطاوى!

لم يرق مدام قطاوى أن تحمل هذا العقد فتخلصت منه، وبينما يقدر موكلى أن ثمنه نحو ١٥ ألفا من الفرنكات إذا بقطاوى يبيعهم إياه بمائة وعشرين ألفا.

ها هو ذا البنكير الذى لاترقى إليه الريب، كالمرابى التقليدى، يبدأ بأن يبيع لأبناء العائلات تماسيح من القش.. «يبيع لمدام همبير» عقدًا بثمانية أضعاف ثمنه.

هذه الواقعة البسيطة تمكننا من الحكم على استهلاك هذه العمليات.. ثم تتابعت العمليات.

وفى ١٧ من ديسمبر سنة ١٩٠١ أى بعد ١٤ عاما قُدمت الشكوى بالربا الفاحش. وفتح التحقيق مع قطاوى فأبدى محاميه استنكاره بقوله: «إن العدالة الفرنسية تجثو تحت أقدام «مسيو ومدام همبير» وإن اتخاذ الإجراءات ضد هذا الرجل الشريف (قطاوى!) يتجافى مع القصد والنصفة.. وكان يجب إجراء تحقيقات أولية (تحريات) قبل أن يشرع قاضى التحقيق فى إجراءاته!

إننى أفهم هذه الحسرات. فلو أجريت هذه التحريات قبل أن يشرع قاضى التحقيق فى عمله، لأتيحت لقطاوى فترة كافية لإخفاء حساباته واتخاذ احتياطاته!

لقد جرت العدالة مسرعة، مرة! ففيم التأذى من ذلك الفضل النادر الحدوث!

سوف أغفل ماقيل ضد النائب العمومى والأفوكاتو العمومى اللذين يعرف لهما وزير العدل قدرهما من السمو والحصانة، وإذا كان الزميل الجليل قد أحس بحاجة إلى أن يدافع عن قطاوى وعن صديقه الشخصى المسيو «فلان».. فإنى لن أترافع إلا عن موكلى.

افتتح التحقيق قاضى التحقيق، وسأحدثكم عما أسميه «الرحلة إلى مصر» وبعبارة أخرى «تهريب دفاتر الحسابات إلى الأسكندرية».

علم البنكير أن الشكوى تقدمت ضده. ودعى للتحقيق. وتحدث معه قاضى التحقيق كما يأتى «لست أريد أن اتخذ ضدك إجراءات قاسية، وأنت صاحب مصرف يعكر التفتيش صفو عملك، فعدنى بأن تقدم دفاترك».

فافترص الفرص، وأعطى كلمة الشرف، قائلا إنه سيقدم إلى الخبير المعين فى مساء ٢٨ من سبتمبر دفاتر حساباته ابتداء من سنة ١٨٨٧. لكن كلمةالشرف ليست كلمة شرف إذا صدرت من الرجل الذى يخاصم اليوم مدام همبير.. وسترون كيف أوفى بعهده.

أحس «رومان دورنياك» أخو مدام همبير والآنسة دورنياك» أن قطاوى، قد يفكر فى إخفاء أوراقه، فراقبه فى داره، فوقع بصره يوما على عربه «المساجرى ماريتيم» أمام منزل قطاوى تنقل إليها ستة صناديق ضخمة، وعلم من السائق أنها تحتوى دفاتر حسابات!.. من محل قطاوى فلم يضع لحظة، وقصد مع «مدام همبير» إلى قاضى التحقيق فى أول أكتوبر سنة ١٩٠١، يبلغانه «أن جميع حسابات قطاوى ستهرب إلى مصر ويحسن اتخاذ الاحتياطات».

قال القاضى «لا يمكن أن يرتكب قطاوى هذه الحماقة التى تخسره كل شىء ولقد اعطانى كلمة الشرف!

لكن دورنياك، العليم بكلمات الشرف عند أصحاب المصارف، قال له لاقيمة لهذه الكلمة. قال القاضى: فلنتخذ الاحتياطات.

وفى أول أكتوبر انتدب المسيو «روى» مأمور الضبطية القضائية للتفتيش، فاسمعوا إذن لتقرروا حسن نية قطاوى فسأقدمه لكم متلبسا بجريرة عدم الصدق. ولتقرأ محضر المسيو «روى» فى مكتب شركة المساجرى بميدان الجمهورية:

قابلنا مدير المساجرى مريتيم ورئيس قسم التعبئة وانطلقا معنا إلى حيث أظهرانا على الصناديق الستة التى هى موضوع الشكوى.. فوجدناها.. تحمل أرقاما مسلسلة من ١ - ٦.. فتحنا الثالث منها فوجدنا فيه دفاتر حسابات قطاوى فضبطناها.

وسألنا رئيس التعبئة عن صاحب هذه الرسالة فقرر لنا، والأوراق بيده، أن المرسل هو «إخوان سوارس بمصر» بشارع لافايت رقم ١٤ وأن الميناء المرسلة إليها هى «اسكندرية». وقدم إلينا ورقة العربة المرافقة، تتضمن بيانًا عن محتويات الطرود «أوراق عمليات تجارية» وزنها ٢١١ كيلو جرام.

ولما قدم هذه الورقة قرر أنه لا ريب لديه فى أن مصدر الرسالة، ليس محل سوارس، وإن كانت الرسالة جاءت منه! لأن المسيو قطاوى قد تحدث أمس تليفونيًا لأخذ الطرود، حالا، وتوصيلها، حالا، بأقصى سرعة.. ولقد كانت مرحلة، لو أمكن تحقيق تلك الرغبة عندما تحدث قطاوى كانت راحلة غدًا، صباحا ولقد سألنا رئيس التعبئة عن المحادثة التليفونية التى جاءت من محل قطاوى أو أنه نفسه هو المتحدث، فأجاب غير متردد، وهو يؤكد، أن المسيو قطاوى معروف لديه وأنه تكلم بنفسه.

هذه الدفاتر إذن مصدرة تحت اسم مزور. لأن أصحاب بنك قطاوى ثلاثة: إيلى، ويوسف، وموسى. الأنبياء الثلاثة! لكن التصدير كان باسم سوارس، لحساب سوارس، إلى «الأسكندرية».

وإذن أستطيع أن أقول لقطاوى: لقد أعطيت كلمة الشرف باعتبارك رجلا مرابيًا، لا رجلا شريفًا، تقدم أوراقك للخبير، لكنك كنت تبيت الغدر فى نفس اللحظة، وبعد أن أقسمت للقاضى ألا تخفى دفترا من دفاترك، حاولت تلك المحاولات الجارمة، لتحول دون تحقيق العدالة فى مستندات تحمل أدلة جريمتك.

إنك أنت الذى أمرت بالتصدير، إنك أنت الذى تحدثت بالتليفون، فى الوقت الذى كان ينتظر فيه قاضى التحقيق وفاءك بوعدك.

لكن هذا ليس كل شيء فلقد ذهب المسيو روى إلى المسيو قطاوى ليتكلم معه شخصيا، وإذا بهذا الدليل الذى قدمته من قبل، يؤكد ويؤكد، بدليل أقوى وأقطع.

فمن المتهم اليوم إن لم يكن إياك يا قطاوى!

انتقل «روى» فى الغداة إلى مكاتب قطاوى وكان يجهل عملية الضبط التى حدثت من قبل فى «المساجرى مريتيم» فحاول أن ينكر لكنه لم يلبث أن تدهور.

وسنتكلم عن ذلك كلمة فى محكمة الجنايات فلينتظر..

أثبت المسيو «روى» فى محضره مايأتى،

«انتقلنا إلى بنك قطاوى وجردنا دفاتر الحسابات..

وسألناه عن الدفاتر الناقصة وبخاصة عن المدة السابقة على سنة ١٨٩٠ فأجابنا بأنها غير موجودة الآن.. (متسربة)..

وأنه سيتمكن من أن يضع الدفاتر بين يدى العدالة، إلا دفاتر الحسابات السابقة على سنة ١٨٩٠، فقد قرر لنا عنها وهو يعانى حيرة بادية «الظاهر أنها فى القاهرة – لأن حسابات فرع باريس ترسل إلى القاهرة كل عشرة أعوام» فسألناه متى كانت آخر رسالة من هذا النوع، فأجاب بعد قليل من التردد: من أيام – ولما أخبرناه بما تم من إجراءات أمس فى مكتب «المساجرى مريتيم»، قال حرفيًا: «هذا صحيح» فسألناه: علام تحتوى هذه الصناديق، بدا له أن يعدل عن الإقرار الذى كان بسبيله، وقرر أنه يجهل محتوياتها، بل ويجهل – أيضا – واقعة الرسالة التى نحن فى صددها.

وقرأ هذه الأقوال – وأمضاها معنا. «روى»

إننى أدرك الاضطراب الذى يعانيه قطاوى.. فالكذب بغيض. لكن التعمية لامناص منها وهى على كل حال ديدنه.

ألم تلاحظوا عليه فى جلسة أمس أنه لم يُسأل سؤالا، إلا حاول بقدرة خاصة، أن يراوغ كيلا يقول لا، ولايقول بلى!

ولكن أنى لك أن تزوغ! إنك أنت الذى تحدثت فى التليفون.. إنك أنت! وإن لك لنطقًا مصريًا للفرنسية لايدع مجالا للشك، يعرفه رئيس قسم التعبئة شخصيًا، إنك أنت الذى تحدثت فى التليفون فى اليوم السابق ومع ذلك تنكر فى الغداة أنك تعرف شيئا عن مسألة التصدير!

إن هذا ليقضى على قضيتك.

عندما يحاول مصرفى متهم بالربا الفاحش أن يخفى حساباته فهو لايصنع ذلك إلا واثقا مما تحتويه من أدلة جريمته.

لقد أعجبت أمس بالهدوء المتعالى الذى خالط عبارات زميلى عندما قال «ليس لهذا أهمية، فسنقدم هذه الدفاتر للدفاع عن قطاوى. فلماذا إذن حاول قطاوى أن يقول إنه ليس الآمر بترحيلها، وإنما أصدر الأمر واحد من موظفى مصرفه!

ألا ما أعجبه مصرفًا مع صاحبه، وما أقل اطمئنان صاحبه عليه!. ذلك المصرف الذى يستطيع المستخدمون المتواضعون فيه أن يرحلوا إلى الخارج كل حساباته، دون أن يعلم صاحبه شيئا عما صنعوا!!

وسنسمع بعد لحظة بالعجب العجاب!.. حيث نرى مستخدمًا بسيطًا فى المصرف يجىء، من تلقاء نفسه أيضًا، ليستنقذ صاحب المصرف فيعرض على مدام همبير إنقاذه من السجن لقاء أن يعطيها هو- المستخدم- مليون فرنك!؟..

فياله من مستخدم ذكى الفؤاد جسور؟ ففى اللحظة التى يهاجم فيها صاحب المصرف ذلك الهجوم، نرى موظفين مخلصين عند رجال أمناء، بل أقول: رجالا أمناء عند أرباب مصارف.

ولننتقل الآن إلى حجة أخرى، إننا لم ننس أن مأمور الضبطية القضائية انتقل إلى قطاوى وأن هذا قال له: «إن من غير الملائم أن يلقى المرء مأمور الضبطية القضائية زائرًا» وإن موظفًا فى بنك قطاوى قال للمأمور «هذه أول زيارة من هذا القبيل لمصرفنا»:

ألا فليصبروا قليلا!. فلن تكون تلك الزيارة هى الأخيرة، إذا كانوا صنعوا مع آخرين مثل الذى صنعوا معنا.

ارتاع قطاوى. فانعقد مجلس عسكرى، وتصدر لإدارة الجلسة واستنهاض الهمم الخائرة، رجل كان اتزانه، وذكاؤه وهمته على قدر ماتتطلبه مخاطر الحالة، إنه زميلنا القديم، الذى لم تفارق ذاكرتنا مرافعاته، إنه فردريك ر.. وهو من عنصر أجنبى، صاهر قطاوى فانعقد حلف عائلى بين مصر وبافاريا.. وبعد ضبط الدفاتر، وزيارة مأمور الضبطية أراد قطاوى أن يستسلم، فقال له ر.. «كلا ياعمى Papa يجب ألا نستسلم ياعمى Papa المقاومة واجبة ياعمى Papa.

ولا تنسوا أن زوج البنت أكبر سنا بكثير جدًا، من والد الزوجة؟. فله ولمواهبه كل الاحترام.

ولقد وجد رجل يسدى المشورة بالتبصر، سمعتموه وأعجبتم بقوة نفسه ومرونتها هو «فرنان كريميه» عضو مجلس النواب السابق وعضو مجلس الشيوخ الحالى، ونصح بزيارة «مدام همبير» فانتقل قطاوى إلى منزل تلك التى بلغت ضده بأنه ارتكب جريمة الربا.

لقد سبقت زيارته إياها زيارة مستخدمه، «المسيو بلانشارديه» وقطاوى يؤكد لنا أنه يجهل زيارة مستخدمة هذا، وأنه لم يزرها إلا من تلقاء نفسه، لكن ر.. أكثر صراحة، فلقد سئل فى وقت

غير الذى سئل فيه صهره، فلم يتطابقا.. وقرر أن «بلا نشارديه» زار دار «مدام هبير» ليعرف من «رومان دورنياك» ما تبغى أخته.

اعترف قطاوى.. ولم يك له معدى عن الاعتراف - بأنه قصد إلى دار «مدام هبير» ليتفاوض معها. ففيم كانت المفاوضات.. وإذا كنت تريد من المحكمة أن تقتنع بشرفك فكيف تستطيع أن تسوغ لها أنك كنت ثمة تضع نفسك تحت رحمة السيدة التى اتهمتك بالجريمة المخزية.

فيالها من زيارة مثبتة للجريمة، ومخزية معًا!... لقد قبلت أن تدخل فى مفاوضات مع «مدام هبير»!... وأن تعطيها مليونا!... أو أن تعيد لها أوراقا تجارية وقعتها بهذا القدر، حررت - صوريا - للغير، وهى لك!... وتوسلت إليها أن تسحب شكواها. ووضعت نفسك تحت رحمتها عندما أحسست فى تلك الليلة أنك ستبيت فى السجن.

وفى نفس اليوم، فى الخامسة، ذهبت مدام هبير مع أخيها إلى قاضى التحقيق تقول: «لقد كان قطاوى عندى، وركع تحت قدمى لأسحب الشكوى ويدفع لى مليونا... فماذا أصنع؟».

وإنى أرجو حضرة القاضى أن يكذب أى كلمة غير صحيحة من هذا البيان...،

فأجابها القاضى:

«لا تقبلى هذه العروض - ففى بضعة أيام ستنالين - لا مليونا واحد - لكن كل حقوقك، إنه أصبح فى قبضة العدالة، وليس لك الحق فى إجراء التسويات معه، وأدلى المحضر بدلوه فى الدلاء فقال «سيعين خبير يقرر لك كل ما تستحقينه».

تلك حوادث لا تنسى حدثت فى أول أكتوبر سنة ١٩٠١!... وهى تأذن لنا بتقدير قيمة شكوى قطاوى ضد «مدام هبير» أنها بلغت فيه بلاغًا كاذبًا.

* * *

تعين خبير، وتقدم تقرير، لكن زميلى عن قطاوى يقول «إن عمل الخبير لا قيمة له لأنه وإن كان رجلا ذكيًا أمينًا إلا أنه كان «مسحورًا» «بمدام هبير».

لقد نسى الزميل تلك الملحوظة الدقيقة التى صدر بها الخبير تقريره: وهى أنه جعل الأساس الوحيد لعمله حسابات قطاوى التى حاول إخفاءها عن العدالة... وإليكم بعض ما جاء بهذا التقرير (وتلا بعضا مما جاء فيه) ثم قال:

أترانى بحاجة إلىّ أن أذكركم بما أكدته لنا مدام هبير من أنها فى سنة ١٨٨٨ دفعت إلى قطاوى خمسمائة ألف فرنك عمولة لاقتراض ٨٠٠ ألف!.

لقد قرأت تقرير الخبير وهو رجل مؤدب، مهذب، رفيع الخلال، لا يميل إلى العبارات

القاسية، فهو لا يقول عن قطاوى إنه مراب ولكنه يقول عنه: إنه «صاحب مصرف يضيف إلى عملياته إضافات».

والإضافات باللغة التى أعرفها هى الربا.

ولست وحدى أرى هذا الرأى ولكن رأيى يشاطرنيه قاضى التحقيق.

أيريد قطاوى بعد ذلك أن تقول عنه المحكمة إنه رجل شريف!... يريد لهذا الرأس الذى تساوره هموم الملايين، وعمليات الاستغلال التى استنزفت الذهب من جيوب الفرنسيين، يريد له أن يكلل بهالة من الطهر والبراءة والفداء، كأنه من رءوس الشهداء!...

أخذ الخصوم على مدام همبير أنها لم تتكلم أمام قاضى التحقيق!...

إن لدينا فى فرنسا فكرة غريبة عن الحرية تجعلنا نتأذى من استعمال المتهم أبسط الحقوق، حق عدم الإجابة فى التحقيق!.. إن قاضى التحقيق مسلح بأخطر السلطات حتى ليصبح المتهم أعزل أمامه... مع حضور محاميه، ذلك الحضور النظرى، منذ قانون سنة ١٨٩٠، ومن واجبى أن أقول إن قاضى التحقيق قلد المتهمة محتميًا بسر المهنة «سرية التحقيق» فلم يتكلم القاضى أمام «مدام همبير» أكثر مما تكلمت «مدام همبير» أمام القاضى.

وكما جاء المثل من عل جاء من أسفل.

ففى ٢٧ مارس سنة ١٩٠٢ دعى قطاوى أمام قاضى التحقيق: الذى يستجوبه كمرابٍ، فأجاب، وإليكم نص ذلك الجواب:

«قطاوى (مجيبًا): إننى أحتفظ بالجواب... وسأطلب نسخة من الشكوى وتقرير الخبير وملحقاته».

هكذا - هكذا: لا كلمة اعتراض!. ولا إشارة احتجاج! لقد كنت أنتظر منك أن أسمع صيحة الضمير الطاهر، المطمئن، فلم أسمع إلا الإجابة التاعسة طلب التأجيل.

بل إنك لتصطنع فى سبيل الدفاع عن نفسك أغرب الوسائل وأشدها بؤسًا، فعندما تلقت النيابة طلب «المسيو ومدام همبير» للادعاء مدنيا اعترض قطاوى بلسان محاميه الذى أضاف إلى مركز المحامى نفوذ صاحب لقب «وزير فى المستقبل» فقدم مذكرة يقول فيها:

«كان التحقيق سريًا حتى سنة ١٨٩٧ ولم يبق سريًا اليوم، بالنسبة للمتهم ومحاميه، أما المدعى المدنى فيجب أن يظل بعيدًا عن الإجراءات».

وقدم دفعًا بعدم قبول التدخل من «مسيو ومدام همبير»، فهما لا يستطيعان التدخل، ولا توكيل محام للحضور عنهما فى التحقيق، ولا حق لهما فى الاطلاع على الأوراق.. وهكذا: بدلا

من أن تنشر النور وتلتمس الحقيقة رحت تستعين بمحاميك لخنق إجراءات هى لا شك دائرة عليك.

ونقول إنك قدمت شكوى ضد مسيو ومدام همبير بأنهما «نصبا» عليك.. لكن شكواك لم تقدم إلا بعد التحقيق معك، فأنت تبحث عن مصلحتك وحماية ذاتك، وعندما شعرت أنك فقدت كل شىء، وأن أبواب السجن قد تفتحت على مصاريعها لاستقبالك، وأن الإجراءات الجنائيه لا محيص عنها، عندئذ فقط قدمت شكواك.

لقد كان فزعك من السجن السبب الوحيد لالتجائك للنائب العام! لم تكن شكواك احتجاج رجل شريف ولكنها كانت دفاع قلبٍ هلوع.

إنك لا تتردد دون أى مناورة، أتذكرون يا حضرات السادة شهادة حسن السير والسلوك التى طلبها فأعطيها من «المسيو ومدام همبير» فى ٣٠ من أكتوبر ١٨٩٣؟.

إن جميع الذين ترافعوا فى قضايا الربا الفاحش يعرفون أن المرابين عند ارتكاب جرائمهم يطلبون من أبناء العائلات أو السيدات المسرفات الذين يستنزفونهم شهادات مماثلة.

ألا ما أجمل أن نلتقى مرة أخرى بقطاوى أمام محكمة الجنايات!.

– المسيور.. انتظر إذن حتى نكون ثمة، فستنتهى بأن تهيج غيظى.

– هنرى روبير: حقيقة؟.. إنى أكون قد نجحت. فلا هم لى غير ذلك. أجل أيها السادة، فلسوف أهنىء المسيور. ولسوف أقول له «لقد كنت صريحًا فى قضية الأمس، وإن تلك الصراحة لم تكن غريبة لدينا. لأن لنا بك عهدًا. وعندما اعتزلت المحاماة فى باريس لتقف خدماتك على تنمية ثرائك جزعت نفوسنا لاعتزالك».

لقد أكد لنا قطاوى فى بداية القضية أن هذه الشهادة لم تجىء عن طريقه. والرجل الشريف هو الذى يقول إنه يجهلها جهلا تامًا.. أما ر. فقد نظر إليها بعين لم تخدعه، فقدم لنا الإيضاح الطريف وهو أن الصورة المرافقة للدوسيه محررة بخط أحد عماله القدماء.

* * *

والآن لم يبق لدى إلا كلمة واحدة لأنتهى.

يريد قطاوى منكم أن تقولوا إنه كان مجنيًا على سمعته فى جريمة بلاغ كاذب فمن الرجل؟

أهو الفنان ذو العبقرية الخالقة، الرسام ذو البراعة الطائرة الصيت؟

أهو رجل من رجالات الأدب الذين يهزون بآثارهم أحاسيس الجماهير؟

أم خطيب عظيم يسحر الجموع ويدوى صوته فى المجامع؟.

كلا. إنه ليس إلا جماعا للمال، منقبًا عن الأعمال!!

بلى لقد صنعت ثراءك، وجمعت ملايينك! أفتريد معها الشرف وتريد الاحترام؟!

ألا عز ما تبغى!

أيها السادة احتفظوا لآخرين غير قطاوى بشهادات التكريم والشرف. وستثبتون ببراءة «مسيو ومدام همبير» أنكم تصدرون أحكامًا ولا تؤدون خدمات.

obeikandl.com

فى محكمة الجنايات

٣ - قضية بوبوروش
أمام محكمة جنايات السين

حضرات القضاة:

حضرات المحلفين:

ساعتان طويلتان، واتهامان، أحدهما لا سبيل إلى تسكينه من المدعى المدنى وثانيهما أكثر اعتدالا، من الاتهام.

ومع ذلك ولأنى أعرف القلب الكبير والنفس العادلة، عند الأفوكاتو العمومى، فقد ظللت أنتظر حتى اللحظة الأخيرة، أن يتنازل الرجل القضائى العظيم عن اتهام الرجل الذى أتشرف بالدفاع عنه «بوبوروش»، لكن ممثل الهيئة الاجتماعية، على نقيض ما توقعت قد طلب إليكم الحكم بإعدامه، إذ يراه مجرمًا، فى حين أراه بريئًا... بل فريسة: وإليكم البيان.

ولكن هل أنتم بحاجة إلى ذلك البيان بعد المناقشات التى أدارها بين أيديكم حضرة الرئيس بجلال واستقلال ومقدرة جديرة بالاحترام! إنى لم أتوقع غير ذلك ممن بلغ مؤلفه (الجريمة الأدبية) من النجاح ما تعرفونه، حتى ليبرز فى مكتبة كل قانونى جدير بهذا الوصف.

لقد تتبعتم هذه الجلسات باهتمام عظيم، وأنت خاصة يا حضرة «المحلف الرابع» لقد وجهت من الأسئلة الدقيقة المنتجة ما طمأننى على متاعب الرجل الذى أدافع عنه..

عشرون دقيقة لا أكثر ولا أقل. ستأذن لى بإثبات براءة «بوبوروش» فهل أنتم بحاجة إلى سرد الوقائع؟.

قضى «بوبوروش» كأشرف رجل فى الدنيا، ليلة السبت ٢٦ يناير، فى المقهى مع أصدقائه الذين لا يفارقهم. والذين سمعتموهم فى هذه الجلسات شربوا، ولعبوا، وكان مزاجه فى أحسن حالاته. وهو يترنم بأغنيته التى يبدو أنه لا يتذكر سواها «للسلام تعمل مطرقتى».

وقصد إلى وكر غرامه حيث تنتظره السيدة التى شغفته حبا والتى أعتبرها اليوم مثال الفضيلة المفترى عليها، السيدة «آديل»، على رغم ما فوجئت به من اللوم من فم رجل قضائى

نافذ البصيرة – من أهل باريس! – كالأفوكاتو العمومى، لأنها تلبس جوارب حريرية، وتطلى أظافرها كل صباح.

إن علىّ أن أنبهكم يا حضرات المحلفين إلى الشهادة المخلصة المؤثرة التى أداها فى هذه القاعة خير أصدقاء موكلى، المسيو «بوتاس» لقد شهد أن «بوبوروش» قرر له «إن لدىّ صديقه كلها رقة، مديرة، أحبها، ولن يخالجنى الشك فى إخلاصها لحظة» وأضاف: «إننى سعيد كل السعادة التى يستطيع رجل أن يظفر بها».

أنشودة بديعة، بليغة، من التقدير لكمال السيدة التى منحته النعيم.

بل إن من حقى، وواجبى، أن أعلن فى هذه القاعة أن هذا الإيمان بالحب كان يبقى خالدًا، لو لم يتقدم فى الظلام، بعد إغلاق المقهى، «رجل يلطخ هذا النعيم وينتزع من هذا الإيمان بهاءه فيدفع إلى ارتكاب الجريمة.

هذا الرجل، المجنى عليه عندك يا حضرة الأفوكاتو العمومى. هو المجرم الحقيقى عندى، الذى لو قدرت له الحياة لكان عليه أن يؤدى الحساب للعدالة عما سكب من الأسى فى قلب الرجل الذى يذرف الآن الدموع.

شهد أمامكم الرجل العظيم «جورج كورتين»، الذى ستضمه إلى أعضائها قريبًا أكاديمى «جونكور» ولم يحضر إلا ليشهد بما لبوبوروش من فضل، ذكر لكم عن هذه الشخصية الغريبة للرجل العجوز المتوفى، مسيو سوب، إنه كان مستخدمًا متقاعدًا لا عمل له، يعانى آلام المعدة.

أراد الحظ ألا يكون فى مخدعه الآن حيث كان مقدورًا عليه أن يبقى ليضعف صحته من زمان، فذلك أول طيش كبير تورط فيه! إنه لا يعرف بوبوروش»، ومع ذلك ينقض عليه من غير مقدمات، بين اثنين من «خلصائه» ليقول له الكلام الذى تذكرونه..

إنكم لتذكرونها هذه الكلمات، وهى فى نظرى تشتمل على تحريض على القتل: رجل سعيد، لعله السعيد وحده، فى الوجود، يملأ كيانه حب غامر، يؤمن بإخلاص الشخصية الممتازة التى تخيرها بين نساء العالم، يجىء إليه رجل ليقول له فى وحشية لا تغتفر: يا سيدى، إننى لا أعرفك لكنك مخدوع، بل هو يذهب إلى أبعد من ذلك، كأنما اعتورته شياطين الشر، فإن المتهم لا يصدقه فيندفع الرجل إلى التحديد، ويزيد: فى كل مرة طيلة سنوات ثمان لا تكاد تترك باب دارك، التى تنفق عليها من مالك، والتى تحتوى أعز آمالك، حتى يختفى فيها رجل.

لكن «بوبوروش» المسكين يستمر فى عدم تصديقه فيتمادى الرجل إلى التهكم ويقول: هذا يقطع عليك سيجارك!؟.

وبدأ «بوبوروش» يسائل نفسه: «أتخوننى! أهكذا لم يعد لديها إحساس!».

ويستطرد الرجل فيجيبه: «إنها إذا لم يكن لديها عاطفه بالنسبة له فإن لديها الإحساس بالنسبة لسواه» ويستطرد، ويستطرد، حتى ليستشهد الجدران التى لا تحفظ أسرار الهوى المختنق.

إن من يستمع إلى هذا الطعن الشنيع فلا يخنق الطاعن، لا يكون إلا قديسًا! وأينا لا يغفر له ذلك؟.

غلق المقهى أبوابه ومشى «بوبوروش» يترنح كأنما مسه خمار الكحول، وما هى إلا غيبوبة الأسى والكدر، فى طريقه إلى وكر غرامه، فريسة لأعنف الأحاسيس.. ها هو ذا على الطوار المقابل لداره. ها هو ذا: يتراءى له بين شقى النافذة ظلان..! عمل من أعمال الخيال المهتاج، قد حركة الإفضاء الشنيع الكاذب الذى أدلى به المسيو «سوب»! فارتقى درج السلم، فصار فى الشرفة. يعالن محبوبته بشكوكه التى قتلت كرامتها وقتلت حبها معًا، فأعلنت له براءتها، وأخذ يبحث فى الدار عن الرجل الذى يظن أنه رآه.. فمدت يدها إليه بمصباح مضىء لينير كرامتها وظلام الدار.. لكن النسائم أطفأته فعاد الظلام.. إلا شعاعًا من النور ينساب من باب الدولاب الداخل فى الجدار.. ففتحه.. وإذا فيه المسيو «أندريه». الفتى الذى سمعتموه فى هذه القاعة يدلى بشهادته، فى اتزان واعتدال، ويترك فى نفس المحكمة الأثر الذى تركه فى نفسى..

فماذا كان يصنع فى ذلك الدولاب؟.

تلك هى المسألة التى تتساءل عنها يا حضرة الأفوكاتو العمومى.. ولقد تساءل من قبلك المتهم.

وهنا أرجو أن تأذنوا لى باحترام رغبة بوبوروش، فى هذا الشأن وهى ألا أجيب.. لقد فهمتمونى من ثنايا الكلام.. إن هناك أسرارًا للعائلات ليس لأحد حق فى اقتحامها، بل إن العدالة نفسها لتنحنى أمامها، فلا تسأل عنها.

أجل: سر عائلى فليصلح بالك «يابوبوروش». إنى لن أهتك ستر هذا السر الذى تغار على حفظه من أجل شرفك، ومن أجل شرف السيدة «آديل» والمسيو «أندريه» فهما متضامنان معك فى الاحتفاظ به، وفى إيداعه.

سر عائلى! يسوغ وجود «المسيو أندريه» فى ذلك المكان الشاذ لو أبيح لى أن أذيعه لأعجبتم من فوركم بالرجل الذى أدافع عنه، إعجابًا يعدله ازدراؤكم للمجرم الوحيد فى هذه القضية مسيو «سوب».

وسيدرك حضرات المحلفين معى ثورة نفسك «يا بوبوروش» عندما تناهى إليك وقع أقدام الرجل العائد فى اطمئنان إلى مسكنه، بعد أن حطم سعادتك بغير داع، عند ذلك كانت وثبة

«بوبوروش» نحو الباب، والكلمات العنيفة العادلة التى قذف بها فى وجه القاذف. فحاول الرجل أن يفتح فمه. ترى أيريد أن يلوك لسانه وقاحة أخرى! إن من حق «بوبوروش» أن يخاف، ومن واجب «سوب» أن يبتلع لسانه.. لكنه يهم بالكلام وإن سبة أخرى ستهبط من بين شفتيه، ويجب ألا تهبط.. فليمنع «بوبوروش» الشر وهو فى سبيل تكوينه، فيمسك بيديه عنق الرجل..

وفى الغداة، أسلم الرجل العجوز روحه.. ومن أجل ذلك جىء ببوبوروش كالمجرمين إلى محكمة الجنايات.

❁ ❁ ❁

قرر «الدكتور بول» فى شهادته العلمية الجديرة بالإعجاب أنه إذا كان «سوب» مات نتيجة اختناق، فلا شىء يعين على التأكيد بأن صلة السببية قائمة بين الوفاة والضغط على العنق الذى وقع، وتلك واقعة قد سجلت لحسابنا فى الجلسة.

❁ ❁ ❁

إنى أضيف أن هذا الحادث المؤلم – أيًا كان – يبدو لى كأنه قصاص جاءت به السماء، للتهوين على الرجل الذى أدافع عنه، والذى يطلب العدالة منكم.

إننى أرجوكم أن تبرئوا «بوبوروش» حتى إذا أويتم إلى مساكنكم فى هذا المساء استطعتم وأنتم تتناولون العشاء – أن تلقوا على زوجاتكم وبناتكم نظرات تتراءى فيها راحة الضمير.

وفى هذه الأثناء، فى هذه الغرفة الصغيرة التى تعرفونها، حيث يبقى مقفلا ذلك الدولاب، الذى أثار كل الصعاب سيجلس إلى المائدة، «بوبوروش» مبرأ من «محلفى السين» محاطًا بشريكته وصديقه اللذين أسيء إليهما ظلما، واللذين أقاما على الإخلاص له فى بلائه.

❁ ❁ ❁

«ويرىء «بوبوروش» وقضى على المدعى المدنى بالمصاريف وصافح «بوبوروش» بتأثر «أندريه».

الفهارس

obeikandl.com

١ - فهرست الأعلام

(أ)

آنى داير ٢٦٠- ٢٦٤
الأسكندر ١٦٧
إبراهيم راتب ٦٠٠
إبراهيم شكرى ٢١٩
إبراهيم عبد الهادى ١٤٢- ١٤٧
إبراهيم مدكور ١٩٤
إبراهيم أفندى ٩٢
أحمد أبو الفتوح ١٧٤
أحمد إبراهيم ١٧٤
أحمد أمين (المستشار) ١١٤- ١٧٤
أحمد أمين (صاحب ضحى الإسلام) ١٧٤
أحمد حسنى ١١٥
أحمد حشمت ٢٦
أحمد حشمت أبوستيت ١٨٨
أحمد حلمى ٣٥
أحمد حمروش ٢٤٠
أحمد زكى باشا ٥٩- ٢٤٠
أحمد زيد ١٩٠
أحمد عبود باشا ١٤٠
أحمد زكى باشا ٥٩ - ٢٤٠
أحمد عبده خيرالدين ١٧٤
أحمد عصمت ١٢٦- ١٢٧- ٢١٠
أحمد فوزى ٢٤٠
أحمد سيف الدين ٢٧، ٧٠
أحمد شفيق باشا (الطبيب) ١٢٩
أحمد الصاوى محمد ٥٩
أحمد عرابى ١٨٢
أحمد مرتضى المراغى ٢٢٨- ٢٣٠
أحمد ماهر ٥٣
أحمد شفيق باشا (الطبيب) ١٢٩
أحمد عمار (الطبيب) ١٢٩
أحمد مرسى بدر ٢٠٠
أحمد نجيب الهلالى ١٢٠- ١٩٢- ٢٢٧
أحمد حسين ٢١٩،
أحمد وفيق ٦٥
إسماعيل أباظة ٤٥- ١٦٥- ١٧٣
إسماعيل صدقى ١١٥
إسماعيل صالح ٢٨
أكثم بن صيفى ١٧٢
إميل دوس ٩٨
أمين أنيس باشا ١١٣
أمين الرافعى ١٧٣
أمين هويدى ٢٣٩- ٢٤٣،
أنجى أفلاطون ٢٠٣
أنور السادات (الرتبس) ٢٤٠
أوديت سيمون ٣٠٠- ٣٠٦

(ب)

بابكر عوض الله ٢٣٩
بارتو ٣١٥
بربيه ٣٩- ٤٧
بطرس غالى ٣١- ٤٢
بوانكاريه ١٠٥
بوند ٣٠- ٣١
بيكون ٣١٦

(ت)

توفيق (الخديوى) ١٨
توفيق الشاوى ١٧٦
توفيق رفعت باشا ٩٨

obeikandl.com

توفيق نسيم ١٧٥

(ث)

ثروت (عبدالخالق) ٢٦- ٤٧- ٥٨
ثروت أباظة ١٣١
ثروت عكاشة ٢٤٣
الثعالبى (الزعيم التونسى) ٦٦

(ج)

جامبتا ٤٢- ٨١
الجامع الأزهر ١٨٢
جامعة الإسكندرية ١٨٤
جامعة القاهرة ١٨٤
جامعة عين شمس ١٨٤
جامعة الدول العربية ٢٤٥
جمال الدين الأفغانى ١٣
جمال عبد الناصر (الرئيس) ٢٣٢- ٢٣٣- ٢٣٤- ٢٣٦- ٢٣٧- ٢٤١
الجمعية الخيرية الإسلامية ٢٦
جيبى ١٩١

(ح)

حافظ رمضان باشا ١٩٢
حافظ إبراهيم ٣٣- ٥٩- ١٧٢
حامد زكى ٢١٢
حسن الجداوى ٨٨- ٣٠٥
حسن بغدادى ١٨٢
حسن صبرى ٤٧
حسن علام ٢٧٨
حسن عاصم ٢٤
حسن النحاس ٦٥
حسن فريد ٧
حسن الهضيبى ٢٢٢
حسين (السلطان) ٢٠- ٢١- ٢٦
حسين سرى ١٣٩...
حسين رشدى ٢٦
حسين فخرى ٢٠١
الحسينى - أحمد بك الحسينى ٢٤
حفنى ناصيف ١٧٢
حفنى محمود باشا ٦٦- ٧٦
حلمى بهجت بدوى ١١٤- ١٩٠
حمزة فتح الله ١٧٢

(خ)

الخازندار ٢٤
الخديوى (إسماعيل) ٩٣- ٢٧٣
الخديوى (عباس) ٢٧، ٢٩

(د)

داجوسو ٤٠- ١٠٢
دار المعارف ١٦٥- ١٨٦
دراز ٦٣
دلسبس ٣١٢
دنشواى ٣١- ٤٤
دنلوب ١٩٠

(ر)

رياض باشا ١٨- ١٩

(ز)

زكى بدوى ١٣٩
زكى عبد المتعال ٢١٢
زكى المهندس ١٣١
زكى عربيى ٨٤- ٢١٧
الزنكلونى (الشيخ) ٦٣

(س)

سامى مازن (محمد سامى مازن) ١٦١- ١٩- ٢١٠- ٢٢٧

obeikandl.com

سامى شرف ٢٣٩
سانتيز ٧٩
سعد زغلول ٥- ٧- ١٦٩- ١٧٣- ١٧٧
سعيد حلمى (اللواء) ٢٢٥
سليمان حافظ ١١٥- ١٦٨- ٢٠١- ٢٢٢
سليمان مرقص ١٩٠
سولانج موكلير ٩٧
سيد درويش ١٦٨- ١٩٥
السيد على السيد ١٢١- ٢٣٦- ٢٣٨
سيد المرصفى ١٧٢
سيف الله يسرى ٢٠٢

(ش)

الشافعى (الإمام محمد بن إدريس) ٢٤٦- ٢٤٨
شعراوى جمعة ٢٣٩
شفيق شحاته ١٩٠
شفيق منصور (محمد)٥٣،،، ١٧٣
شوقى (أحمد) ٢٣٤
شارل شالوم ١٢٩
شوفو لاجارد ٣٩
شيشرون ٧١

(ص)

صلاح سالم ٢٤٠
صبرى أبو علم (محمد) ٢٣٦

(ض)

ضياء الدين شيت خطاب ١٨٨

(ط)

طاهر محمد ٢١٠
طاهر نور ٥٨
طلعت حرب ٢٤٧

(ع)

عادل يونس ٢٣٩
عاطف بركات ١٧٤
عبد الحليم الجندى ١٢٤
عبد الحميد (السلطان) ٩٣
عبد الحميد أبو هيف ١٨٦
عبد الحميد الوشاحى ١٢٤
عبد الحميد بدوى ٢٨- ١٦١- ١٩٧
عبد الحميد عبدالحق ٨٢
عبد المجيد عبدالحق ٢٢٥
عبد الرحيم غنيم ١٢٤- ٢٢٢
عبد الرحمن الرافعى ١٤٤- ١٩٢- ١٩٤
عبد الرحمن سيد أحمد ٧- ٨٦
عبد الخالق حسونة ٢٢٩
عبد السلام عبد الغفار ٨٢
عبد الفتاح حسن ٢٢٨
عبد الفتاح السيد ١٦٨
عبد العزيز آل سعود (الملك) ١٨٩
عبد العزيز البشرى ٧٩
عبد العزيز جاويش ٣٣
عبد العزيز فهمى ٥- ٧- ٢٨- ١١٥
عبد العزيز فهيم ٧٨
عبد العزيز محمد ١١٣- ١١٥- ١٢٤- ١٣١- ١٩٠- ٢١٥
عبد العظيم رمضان ٢٤٠
عبد المجيد عبد الحق ٢٢٥
عبد الله اللوم ٥٨
عبد المنعم رياض ٢١٠
عبد الوهاب خلاف ١٧٤
عبد الهادى الجندى باشا ٨٦
عبد الوهاب عزام ١٧٤
عبده حسن الزيات ٦٧
عثمان حسين عبد الله ١٨٩- ٢٣٨
عثمان عبد الغفار ٦٧
عدلى يكن ١٦٦

obeikandl.com

عزيز المصرى (الفريق) ٢١٠
عزيز خانكى ٨٢
عزيز ميرهم ٦١
عزيز أباظة (محمد) ١٩٠
على أيوب ٩٧
على شعراوى باشا ٥٢
على بدوى ١٧٥
على الحلوانى ٦٢
على الخشخانى ٢١٩
على فخرى ٢٦
على عبد الرازق باشا (الشيخ) ٦٤
على ماهر ٢٣- ٥٢
على يوسف ٤٦
عمر حافظ شريف ٢١٧

(ف)

فاروق (الملك) ٢٧
فاضل (الأمير) ١٩
فان دن بوش ٢٣١
فتحى رضوان ١١٩- ٢١٠- ٢٣٠
فتحى زغلول ٢٦- ٣١
فتح الله بركات ٥٥
فتحية عبد الرزاق أحمد السنهورى ١٦٤
فؤاد (الملك) ٩٣

(ق)

قاسم أمين ٧- ١٧٢
قطاوى ٣٣٢

(ك)

كامل شهاب الدين ٩٨
كيلنج ٦١
كتشنر (لورد) ٤٦
كرومر (لورد) ٤٥- ٤٧
كريمان خالص ٦٦
كين بويد ٦٥
كليبر ٥٨

(ل)

لابورث (قضية) ٣٢١
لابورى ١٠٢- ٣٠٧
لاشو ٨١- ٩١
لامبير ١٧٥- ١٧٩
لامرتين ٥٥- ١٣٤
اللقانى ٢٣
لينان دى بلفون ١٨٩
لطفى السيد- أحمد ٢٦
لطيف سليم باشا ٥٩
لوجريل ٢٢
اللواء الحديد ١٢٦
لى ستاك (حاكم السودان) ٥٣

(م)

مجلس الشيوخ ٨٨
مجلة مجلس الدولة ٢١٦
محمود يونس ٢٤٣
محمد زكى على ٢١٦
محمد زكى عبد المتعال (انظر زكى عبدالمتعال)
محمد زغلول باشا ٩٨
محمد سامى مازن (انظر سامى مازن)
محمد محمود جلال ٩٢
محمد صبرى أبوعلم (انظر صبرى أبوعلم)
محمد عفت ٢١٠
منصور باشا فهمى ٦٧
مصطفى الشوربجى ١٧٣- ٢٠٢
موسى عليه السلام ٧٦
مى زيادة ١١٥
محمد عبده ١٣- ١٧
محمد عبد العزيز ملوخية ٢٣٧
محمد فريد ٧
محمد فريد أبو حديد ١٩٥

oberkanal.com

محمد فريد زعلوك ٢٢٩
محمد كامل مرسى ١١٥- ١٦١
محمد كامل النحاس ٢٠٢
محمد فؤاد سراج الدين ٢٢٥- ٢٢٨
محمد محمد سلامة ٢٤٠
محمد عبد السلام ١٦٨
محمد العشماوى ١٨٦
محمد أحمد غنيم ١٢٤
محمد على (الأمير ولى العهد) ٦٣- ٦٤
محمد صدقى سليمان ٢٤٤
محمد محمود باشا ٢٧
محمد عزمى ١٩٠
محمد عزيز أباظة ١١٠
محمد محمد الوكيل ٢١٦
محمد مصطفى المراغى ٢٠٩
محمد مروان بك ٥٣
محمد نجيب (اللواء- رئيس الجمهورية) ٢٣٢- ٢٣٤- ٢٣٨
محمد شكرى كيرشاه ١١٨- ٢١٦
محمد نجيب صدقى ١٩٠
مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية ١٦٦
مدرسة محرم بك - ١٧٠- ١٧١
مدرسة الحقوق ١٧٣
محمود الأتربى باشا ٦١
محمود عبد النبى بك ٦١
محمود زكى ١٣٩
محمود محمد محمود ١٦١- ١٩٧
محمود شلتوت ٦٣- ٦٤- ١٩٤
محمود سامى البارودى باشا ١٩
محمود المرجوشى ٩٨
محمود فوزى ٢٣٢
محمود غالب باشا ٨٦
محمود سليمان غنام ٢٢٨
محمود بسيونى ٨٣
مراد سيد أحمد باشا ١٨٩
مرجريت فهمى ٢٨٥
مرقص فهمى ٦٢
المرجوشى باشا ٩٨
مرسى محمود ١١٠
مصطفى كامل ٧- ٢٣- ٣٢- ١٦٩
مصر الفتاة (صحيفة) ٢١٩
مصطفى محمد البرادعى ١٨٥
مكرم عبيد ٦٢
مليران ١٠٥
المنشاوى باشا ٢٩- ٢٤ ومابعدها
مىّ (الآنسة مىّ زيادة) ١١٥
المفتى الجزائرلى ٢٢٢
ميرابو ٢٨- ٩٩

(ن)

نابليون ٧١- ٢٢٠- ٣٠٧- ٣١٠
نابليون الثالث ٢٩٩
د. نادية عبد الرزاق السنهورى ١٦٤- ١٦٥- ١٨٢
نازلى فاضل (الأميرة) ١٩
النقراشى (محمود فهمى) ٥٣- ٩٢- ١٨٧
نجيب محفوظ (الطبيب) ١٢٩
النحاس (مصطفى) ٥٩
نهاد القاسم ٢٤٤
نوبار ٢٤٤

(هـ)

هدى شعراوى ٦٦
هبير (قضية) ٣٣٢
هنرى روبير ٢٩٧
هنرى سكاكينى - ٥٣
هوريو ١٨٠
هيئة قضايا الدولة ١٢٠ ومابعدها
هيجور (فكتور) ١٠٨
هيكل (د. محمد حسين) ٥٩

obeikandi.com

(و)

والدك روسّو ٢٩٩- ٣١٥
وحيد رأفت ٢١٠
وحيد يسرى ٢٠٢
وليم بت ١١٨
الورداني ٣٧
وهيب دوس ٨٧

(ى)

يوسف حلمى ٢١٠
يوسف وهبة ٢٦
يوجينى (الإمبراطورة) ٢٩٩
يونس صالح ٩٨

obeikandl.com

٢ - فهرست المراجع العربية

١ - مذكرات هلباوى بك - مخطوط.
٢ - الكتاب الذهبى للمحاكم الأهلية.
٣ - على هامش الدستور - للأستاذ محمد الشريف.
٤ - أشهر القضايا المصرية - للأستاذ محمود كامل.
٥ - من يوميات محام - للأستاذ عبده حسن الزيات.
٦ - المحاماة قديمًا وحديثًا - للأستاذين عزيز خانكى بك - وجميل خانكى.
٧ - المرافعة - للأستاذ حسن الجداوى.
٨ - مرافعات - للأستاذ حسن الجداوى.
٩ - تراجم - للدكتور محمد حسن هيكل باشا.
١٠ - عبد الرزاق أحمد السنهورى من أوراقه الشخصية. د. نادية عبد الرزاق السنهورى ود. توفيق الشاوى.
١١ - مذكرات قضائية (جزءان) عبد الحليم الجندى.
١٢ - مذكرات سعد زغلول (جزءان).
١٣ - سعد زغلول (مولد ثورة) محسن محمد.
١٤ - مذكرات إسماعيل صدقى.
١٥ - عبد الخالق ثروت مشرفة أحمد المليجى.
١٦ - مقال د. عثمان حسين عبد الله مجلة المحاماة يونيو ١٩٨٨.
١٧ - مجلة هيئة قضايا الدولة يونيو ١٩٨٩ الإمام السنهورى.
١٨ - مجلة مجمع اللغة العربية.
١٩ - من أجل مصر - البطل أحمد عصمت عبد الحليم الجندى.
٢٠ - الإمام محمد عبده عبدالحليم الجندى دار المعارف
٢١ - فى أعقاب ثورة ١٩١٩ عبد الرحمن الرافعى
٢٢ - مقدمات ثورة ١٩٥٢ عبد الرحمن الرافعى
٢٣ - مجلة مجلس الدولة ١٩٥٠
٢٤ - المحامون وسيادة القانون عبد الحليم الجندى
٢٥ - الأعمال التحضيرية للقانون المدنى الجزء الأول.

obeikandl.com

٢٦ – مجلة القانون والاقتصاد ١٩٣١.
٢٧ – مجلة القانون والاقتصاد ١٩٣٦.
٢٨ – نحو تقنين للمعاملات والعقوبات من الفقه الإسلامى عبد الحليم الجندى طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
٢٩ – تقرير مجلس الدولة ١٩٤٧ – ١٩٤٨
٣٠ – تقرير مجلس الدولة ١٩٤٩ – ١٩٥٠
٣١ – تقرير مجلس الدولة المؤرخ أول أبريل ١٩٥١
٣٢ – تقرير مجلس الدولة ١٩٥٣ – ١٩٥٤
٣٣ – القضية المصرية (١٨٨٢ – ١٩٥٤ – وزارة الثقافة – مصر. المطبعة الأميرية).

٣ – فهرست المراجع الأجنبية

1. The Life OF Sir Edward Marchall Hall- Marabanks. – ٣٤
2. La Profession d'Avocat. Appelton. – ٣٥
3. Menus. Propos Sur Les Avocats. Marcel Audibert. – ٣٦
4. Le Bareau. Fernand Payen – ٣٧
5. Les Anthologies Des Avocats Francais Contemporains. Frnand Payen. – ٣٨
6. L'Avocat' Henri Robert. – ٣٩
7. Un Avocat De L'Année 1832. Henri Robert. – ٤٠
8. Le Palais et La Ville Souvenirs Henri Robert. – ٤١
9. Les Grands Procés De I Histoire Henri Robert – ٤٢
10. Models Francais Edmond Proces. – ٤٣
11. Journal de L'universite des Annales 1911-1912. – ٤٤
12. Les Grands Proces de l'année 1932. Geo. London. – ٤٥
13. Leur Maniére-Hesse et Nastrong Garsset. – ٤٦
14. L'Egyyptienn' Revue Mensuelle. Fonda trice Hoda Charaowi. Mei 1936 12ehAn. N. 122 – ٤٧

obeikandi.com

٤ - فهرست الكتاب

صفحة

مقدمة ٣

الفصل الأول : إبراهيم الهلباوى بك ١١

مدرسة جمال الدين ١٢

بواكير المجد ٢١

جلاد دنشواى ٣١

محامى القضايا الوطنية ٣٥

الخريف العاصف ٥٤

فتحت الجلسة ٦٩

رفعت الجلسة ٩٢

الفصل الثانى : الأستاذ مصطفى مرعى ١٠٧

مهمة الحياة ١٠٩

فى هيئة قضايا الدولة ١٢٠

إلى المحاماة ١٢٦

فى مجمع اللغة ١٣١

الرجل والمحامى ١٣٤

قضية محمود زكى ١٣٩

المذكرة الأنموذج ١٣٩ ..... ١٣٩

الفصل الثالث : عبد الرزاق أحمد السنهورى ١٥٩

تقديم ١٦٠

عروس البحر الأبيض ١٦٣

بين سعد زغلول ومصطفى كامل ١٦٩

مدرسة القضاء الشرعى ١٧٤

السنهورى من أوراقه الشخصية ١٧٦

رسالتان للدكتوراه ودبلوم ١٧٩

جامعة القاهرة والقانونى المدنى: ١٨٤

obeikandl.com

صفحة

إلى المحاماة ١٨٧
مع الملوك ١٨٩
مشرع مصر والعالم العربى ١٨٩
مجمع اللغة العربية ١٩٤
مجلس الدولة : ١٩٦
مجلس الدولة من ١٩٤٦ - ١٩٤٩ ..... ١٩٩
قضايا الأفراد ٢٠١
قضايا الموظفين ٢٠٤
قضية مجلس الدولة ٢٠٥
السنهورى فى مجلس الدولة ٢٠٨
فى الجلسة ٢١٧
قضيتا مصر الفتاة ٢١٩
أو الاشتراكية .....
قضيتا بورصة القطن ٢٢١
قضيتا الاجتماعات والمظاهرات ٢٢٣
إلغاء المعاهدة ٢٢٤
مصر تحت الأحكام العرفية : ٢٢٧
قضايا الأساتذة : فؤاد سراج الدين - عبدالفتاح حسن - فتحى رضوان ٢٢٨
مع الثورة : ٢٣٢
اليوم الأول ٢٣٢
اليوم الثانى ٢٣٤
العربى الكبير ٢٤٥

الفصل الرابع : مارشال هول ٢٥١
المحامى الموهوب ٢٥٢
مع السلطة الثانية ٢٦٦
مع السلطتين الثالثة والرابعة ٢٦٩
المحامى الفنان ٢٧٨
فى محكمة الجنايات ٢٨٥

obeikandl.com

صفحة

قضية مرجريت فهمى ٢٨٥
قضية يارموث ٢٩٠
قضية روبرت وود ٢٩٣
الفصل الخامس : هنرى روبير ٢٩٧
محامى العصر الحديث ٢٩٧
فى محكمة الجنح ٣٢١
قضية هبير ٣٣٢
فى محكمة الجنايات ٢٤٣
قضية بوبوروش ٣٤٣

obeikandl.com

للمؤلف

١ – أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح	طبعة دار المعارف
٢ – الإمام الشافعى ناصر السنة وواضع الأصول	طبعة دار المعارف
٣ – مالك بن أنس إمام دار الهجرة	طبعة دار المعارف
٤ – أحمد بن حنبل إمام أهل السنة	طبعة دار المعارف
٥ – الإمام محمد بن عبد الوهاب أو انتصار المنهج السلفى	طبعة دار المعارف
٦ – الإمام محمد عبده	طبعة دار المعارف
٧ – الإمام جعفر الصادق	طبعة دار المعارف
٨ – الشريعة الإسلامية	طبعة دار المعارف
٩ – نحو تقنين جديد للمعاملات والعقوبات من الفقه الإسلامى	طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
١٠ – أئمة الفقه الإسلامى	طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
١١ – نجوم المحاماة فى مصر وأوربا	طبعة دار الاتحاد العربى
١٢ – مجموعة مذكرات قضائية (جزأين)	طبعة هيئة قضايا الدولة بمصر
١٣ – توحيد الأمة العربية	طبعة وزارة الثقافة – مصر
١٤ – تطوير التشريعات	طبعة وزارة الثقافة – مصر
١٥ – من أجل مصر (البطل أحمد عصمت)	المطبعة التجارية – مصر
١٦ – القرآن والمنهج العلمى المعاصر	طبعة دار المعارف
١٧ – فى السيرة النبوية	طبعة دار المعارف
١٨ – نحو تقنين للمعاملات والعقوبات من الفقة الإسلامى	طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

أبحاث منشورة

١٩ – الشريعة الإسلامية مصدر رئيسى للتشويع	بحث مقدم لمجلس الأمة المصرى عند إعداد الدستور سنة ١٩٧١.

obeikandi.com

٢٠ – الشبهات التى تثار حول تطبيق الشريعة – فى العصر الحديث – بحث مقدم لمؤتمر الفقه الاسلامى بالرياض سنة ٧٦ — مجلة هيئة قضايا الدولة سنة ١٩٧٨

٢١ – نحو تقنين جديد للعقوبات من الفقه الإسلامى — بحث مقدم للمؤتمر الثامن لمجمع البحوث بالأزهر

٢٢ – نحو قانون للمعاملات من الفقه الإسلامى
بحث بالانجليزية ألقى فى احتفالات مهرجان العالم الإسلامى لندن سنة ١٩٧٦
Towards a contemporary civil law based on Islamic Legislation.

٢٣ – نحو مشروع للدستور الإسلامى
بحث ألقى فى المؤتمر العالمى للعيد الألفى للأزهر (مارس ١٩٨٣) مطبوعات المؤتمر

٢٤ – أثر دعوة محمد بن عبد الوهاب على الدعوات الأخرى
بحث مقدم لمؤتمر محمد بن عبدالوهاب — جامعة محمد بن سعود الرياض ١٩٧٩

٢٥ – بطلان التفتيش بغير إذن — مجلة المحاماة ١٩٣٣

٢٦ – تصرفات السفهاء قبل الحجر — مجلة المحاماة ١٩٣٧

٢٧ – التشريع العربى — كتاب الوطن العربى دار المعارف

٢٨ – الملكية الفنية — مجلة مجمع الفقه الإسلامى بجدة

٢٩ – بيع المتجر — مجلة مجمع الفقه الإسلامى بجدة

رقم الإيداع	١٩٩١ / ٨٧٦٩
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-3552-0

١ / ٩٠ / ٧٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

obeikandl.com